احمد القصوار
محمد منير الحجوجي

طريق الحداثة وأشواك العولمة

في

أعطاب التغيير الحداثي

منشورات دار التوحيدي الربـــاط 2013

أحمد القصوار محمد منير الحجوجي

طريق الحداثة و أشواك العولمة

في أعطاب التغيير الحـــــداثي

منشورات دار التوحيدي الرباط 2013

الـــنـــاشـــــر
دار التوحيدي للنشر والتوزيع ووسائط الاتصال
118 زنقة نابولي المحيط الرباط المغرب
هاتف: 037260578 فاكس : 037260578
البريد الاليكتروني : darattaouhidi@yahoo.fr

الكتاب

طريق الحداثة وأشواك العولمة
في أعطاب التغيير الحداثي

المؤلفان

أحمد القصوار و محمد منير الحجوجي

المطبعة : HorizonPrint Rabat
الإيداع القانوني : 2012MO2799
ر د م ك : 978-9954-507-37-7

فكر بغيرك

و أنت تعد فطورك، فكر بغيرك

(لا تنس قوت الحمام)

و أنت تخوض حروبك، فكر بغيرك

(لا تنس من يطلبون السلام)

و أنت تسدد فاتورة الماء، فكر بغيرك

(من يرضعون الغمام)

و أنت تعود إلى البيت، فكر بغيرك

(لا تنس شعب الخيام)

و أنت تنام و تحصي الكواكب، فكر بغيرك

(ثمة من لم يجد حيزا للمنام)

و أنت تحرر نفسك، فكر بغيرك

(من فقدوا حقهم في الكلام)

و أنت تفكر بالآخرين البعيدين، فكر بنفسك

(قل: ليتني شمعة في الظلام)

محمود درويش

العولمة في بعض حالاتها

الرسائل السرية للعولمة

تمكنت الليبرالية من أن تبسط سلطانها على العالم وتعيد تشكيله بما يخدم عبادتها للمال وللربح وتحكيمها لمنطق السوق الذي وضعته هي نفسها. فبعد انهيار ما يسمى بالمعسكر الشرقي الذي كان يرفع شعار الاشتراكية (فيما كان يمارس الديكتاتورية السياسية والبيروقراطية الاقتصادية العقيمة)، توجت النزعة الليبرالية الاقتصادية نفسها سيدة العالم والحاكم بأمر إله المال والأعمال. ولم يكن من قبيل الصدفة أن تعمد هذه القوة الهائلة أولا إلى إنتاج الخطاب المسهل للعبور والمعبد للطريق من خلال زرع مقولات الفهم والتفكير التي تطبع العلاقة مع الأصل المتوحش للنزعة الليبرالية الضيقة. وهذا ما جعل بلدانا وأشخاصا يغيرون جلدتهم بين عشية وضحاها وصاروا يصطفون في طابور المديح التكسبي لكسب ود المنظمات الاقتصادية الدولية وتبرئة الذمة من السوابق الاشتراكية أو الشيوعية أو من في حكمهما...

وجاء الخطاب العولمي/المُعولم للمنطق الليبرالي ذي الأصل الاجتماعي والإيديولوجي الأمريكي، قبل أن يصير ديانة عالمية جديدة، ليتوج "المجهود" المعرفي

المبذول لتذويب الأصل الليبرالي كي يتم التعامل معه وكأنه بديهية عالمية لا تقبل الجدال أو النقاش. هكذا، صار الانقضاض على الثروات واحتكار الخدمات والسلع وتجويع الشعوب والأفراد وتجميع الأموال في أيدي قليلة، وجعل 80% من سكان العالم عبيدا يخدمون 20% المحظوظة، وتشجيع الصناعات الحربية والقمعية وتجفيف منابع دعم برامج التعليم والصحة والتشغيل.. أصبح كل هذا وغيره كثير ضرورة عالمية ووصايا إلهية ليبرالية ينبغي التقيد بها لضمان دخول جنة التقدم الليبرالية الوهمية.

والغريب هو أن الشر المعمم والمعولم يبصره حتى العميان، غير أن التكلس الفكري وغياب الشجاعة الفكرية والسياسية لتسمية الأسماء وفضح الفظائع التي ترتكب في حق الإنسانية باسم الليبرالية ودخول عهد العولمة يزيد من اشتعال نيران الفقر والتخلف واحتقار الكرامة الإنسانية وإهانة جزء كبير من البشرية. فما لم يتم التوقف عند أصل الشر سيزداد الشر حتى يصير هو أصل الأشياء والكائنات الحية.

الانسحاب من العالم

هذه هي الرسالة الكبرى التي يتضمنها خطاب جارف ينتجه تحالف عولمي كبير يضم أباطرة الاقتصاد وعملائهم من صغار الساسة. فهؤلاء يعملون كل ما في

وسعهم لتتويج سلطان الخوف في نفوس مواطنيهم أولا، و من خلالهم بقية العالم، كما يستغلون كل الحيل والظروف من أجل الحصول على شيكات موقعة على بياض ليضعوا ما يشاؤون تحت ذرائع واهية... ولا يترددون في القفز على المصالح والاحتياجات الحقيقية للشعوب من أجل إرضاء لوبياتهم ومموليهم الذين لم يعودوا من وراء حجاب.

وأولئك نصبوا أنفسهم حكاما للرغبات والحاجات الإنسانية وأنبياء محتشمين مبشرين بالسعادة الدنيوية! فأنت تراهم يمطرقون الناس بوصلاتهم الإشهارية ذات التدمير الشامل، حيث لا يكون الإنسان إنسانا والسعادة سعادة والرغبة رغبة... إلا عبر منتوجاتهم وخدماتهم العجيبة! كما لا يترددون في طمس السياسي وتحويل المتلقي إلى "إنسان" يعيش خارج التاريخ والوطن والعالم، غارقا في بحر من السعادة "الحقيقية" أو الموعودة... فالمهم هو أن يتمتع هذا الفرد ـــ الجماعة "ونحن هنا لخدمتكم"!

هكذا، يتعاون رجل الاقتصاد مع رجل السياسة في حرب ضروس لاجتثاث الوعي السياسي من ضمير وحياة الإنسان ـــ المواطن عبر تحويله إلى أداة طيعة

في يد السياسي ليصنع بصوته ما يشاء، أو كائن استهلاكي يسعى إلى السعادة الموعودة ويجري وراء تحقيق المتع والرغبات المعلبة في عالم الإشهار!

من ثمة، ينسحب هذا الإنسان المسكين من وطنه وأسرته وأمله وعالمه... وينغلق على رغباته الوهمية، ويترك لمحترفي السياسة تقرير مصير العالم.

ترى، هل سيصبح الإنسان والإنسانية رهينة للبرنامج السياسي السري الذي يوحد رهبان العولمة ومريديهم؟

إلغاء إنسانية الإنسان

أضحت العولمة مفهوما متداولا على نطاق واسع داخل الأوساط الإعلامية والاقتصادية والثقافية، حتى أنها أصبحت تعني كل شيء قادم من الولايات المتحدة بالخصوص أو مفروضا من طرفها. وإذا كانت تشكل لحظة معاصرة يعيشها العالم بفعل النزوع المتوحش لليبرالية من خلال جعل المال والربح المبدأ الأول والأخير الذي يحرك الفاعلين الاقتصاديين المتحكمين في رقاب الأفراد والجماعات والدول صغيرها وكبيرها،

فإنها أعادت طرح سؤال الإنسان وأعلنت من جديد عن موته، بعدما سبقها ميشال فوكو إلى ذلك في سياق حفرياته المعرفية.

ذلك أن تأليهها للمال وتحويلها لكل شيء مادي أو معنوي فوق الأرض إلى سلعة خاضعة لمنطق السوق، وعملها على تجفيف منابع الرزق للناس من خلال تسريح العمال والتقليص من الوظائف ومناصب العمل الموجودة، ورؤيتها للإنسان كمجرد مورد يستعمل للزيادة في الإنتاجية والأرباح أو مستهلك يمكن عمل كل شيء لإقناعه ودفعه إلى الشراء أو طلب الخدمات، ثم تحويلها رغباته واستيهاماته (متعددة المصادر) إلى حاجات ضرورية لا غنى عنها... كل هذا وغيره يصب في أطروحة موت الإنسان من جديد في ظل أصولية السوق المعولم وديكتاتورية أصحاب رؤوس المال وإقطاعية أرباب العمل الذين حولوا العمال إلى عبيد سعداء فرحين بمجرد قبولهم للعمل في ظروف أكثر من حيوانية.

هكذا، صارت الزيادة في ساعات العمل، والتقليص من الأجور وعدد العمال، والتخفيض من الضرائب على الشركات مقابل الزيادة في حجم الضرائب

المباشرة وغير المباشرة المفروضة على المواطنين.. صارت وصايا بديهية، ودينا اقتصاديا ينبغي الإيمان به واتباع أوامره ونواهيه في العبادات والمعاملات الاقتصادية والاجتماعية.

من ثمة، تقوم العولمة في مفعولها السام الأخير بإحكام قبضتها على كينونة الإنسان وقتلها لما تبقى من إنسانيته وكرامته على مرآى ومسمع الجميع، وكل مخالفة يعاقب عليها قانون العولمة الطبيعي الذي وضعه حمو رابي السوق.

الإنسان المافيوزي

عرت الأزمة المالية والاقتصادية العالمية الحالية عن" القيم" المافيوزية المتعالية على الأمم و الدول و الأنظمة. كانت المافيا عصابة منظمة تعمل على بلوغ أهدافها بخرق القانون والتواطؤ مع حماته، حيث تصير دولة داخل الدولة. أما الآن فقد غدا الفرد يتحرك بعقل مافيوزي. فالوصول إلى مبتغاه المادي أو المعنوي، ولحصد أكبر قدر من المكاسب وبأقل كلفة أو مجهود، بإمكانه أن يسخر كل شيء ويحرق كل الأوراق ويقطع الأرزاق.! كما كشفت الأزمة الحالية عن عورة مقامرة الليبرالية المتوحشة بمصائر البشر و الحجر (أزمة الرهن العقاري).

إن المد الليبرالي في صيغته الانتهازية المعولمة صار يرسي نظام قيم يهتدي به الأفراد قبل الدول والمجموعات الاقتصادية والمقاولات كبر حجمها أو صغر: ويمكن أن ندفع بالقول إن ديانة جديدة معروفة الإسم مجهولة الجسم ستنشر معتقداتها على نطاق واسع بطريقة علنية مكشوفة.

لم يعد الكثيرون ممن يفترض فيهم الانشغال بهموم البلاد والعباد يكترثون إلى نظام القيم الذي يحكم سلوكاتهم وتصرفاتهم الكثيرة... ولا ينظرون إلى الآثار الوخيمة الناجمة عن مواقفهم واختياراتهم الانتهازية. ولعل الرغبة الفاحشة في الكسب المالي السريع حتى وإن أدى ذلك إلى تجويع وتفقير الآخرين، يزكيها المد العولمي الكاسح الذي يزينه خدامها ومريدوها والمنتفعون من فتاتها عبر وسائط الاتصال وأصحاب القرار السياسي والاقتصادي.

من ثمة، فإن زينة الحياة العولمية تضمر قبحا فظيعا يقتل في الإنسان إنسانيته ويبيد الجذور الديموقراطية التي ربحتها الإنسانية بفضل عصر الأنوار وثورات شعوبها المختلفة. كما أن الفروق بين الأبيض والأسود والخير والشر صارت شبه منعدمة في ظل الإثراء على الإنسان المافيوزي الانتهازي الوصولي... والتنقيص من الإنسان المرابط

خلف قلعة الإنسانية وقيم الخير وتقاسم الخيرات والحفاظ على كرامة الإنسان وإنسانيته.

ترى، هل سيكون الإنسان المافيوزي هو النموذج الأمثل لهذا القرن؟. ربما تحرك الأزمة الحالية بعض الضمائر المتنورة للوقاية مما ستؤول البشرية في ما سيأتي من سنين. إن حربا كونية طاحنة بدأت تطل برأسها بشكل محتشم.. ولعل في دروس التاريخ ما بإمكانه أن يعطي العبرة لمن يريد أن يعتبر من القادة السياسيين و أباطرة المال و الأعمال صغارا كانوا أم كبارا.

الإشهار وسياسات الليبرالية

مثلما أن السياسة لا تعترف بالأخلاق، كما يقال عادة، فإن الإشهار لا أخلاق له أيضا. ذلك أن مقدماته الفكرية وآليات اشتغاله وتأثيره في المتلقي — المستهلك، لا تعترف سوى بمنطق السوق وضرورة الربح والبيع عن طريق تسويق المنتوج/السلعة /الخدمة ودفع المستهلك إلى شراءها وطلبها.

إن منطلق الليبرالية هو اعتبار العالم وطنا كبيرا لها، فأينما ولت وجهها، فثمة مستهلكون محتملون يجب إثارة انتباههم، ثم إثارة اهتمامهم، و بالتالي دفعهم إلى الشراء أو طلب الخدمة. وهكذا، ومن أجل بلوغ هذه الغاية، يستغل المنطق الإشهاري طبيعة تفكير المستهلك وثقافته وأوتاره الحساسة وصورته عن نفسه ووضعه وأحلامه وآلامه... فكل هذا وغيره بمثابة ذخيرة حية يمكن توظيفها في بناء الرسائل الإشهارية، ولا يهم إن كانت حداثية أو أصولية أو ليبرالية أو اشتراكية... أو حتى شيطانية.

الإشهار لا وطن له

ذلك أن المنطق الإشهاري لا هوية له ولا وطن له ولا طبقة له إلا هوية المال وتحقيق الربح ورفع معدلات الإنتاج واكتساح الأسواق.. ولا غرابة أن ترى إشهارا مغربيا في عين الذئاب في الدارالبيضاء مختلف تماما عن إشهار نفس السلعة في وسط المدينة وأحيائها الفقيرة، أو على شاشة التلفزة.

ولا تفيد طبقية الإشهار في هذه الحالة الانطلاق من رؤية طبقية للمجتمع، أي "وجود" اختيار سياسي يتم إعماله إشهاريا، وإنما الالتواء على واقع حال المتلقي في أي زمان ومكان. فالرسالة الإشهارية الموجهة لسكان عين الذئاب ليست هي الموجهة لسكان درب السلطان أو حي اليوسفية بالرباط. هكذا نكون أمام تراتبية إشهارية تحتم التراتبية الاجتماعية وتكرسها، إذ لا يهم الإشهار أن تتقارب الطبقات أو أن يتقارب مستوى العيش، وإنما يهمه الانقضاض على واقع حال كل فئة واستغلاله إلى أقصى حد قصد إقناعها بأن تَهُبَّ إلى شراء السلعة المعروضة.

من ثمة، يكون الخطاب الإشهاري خطابا مهادنا مساندا لواقع الحال. إنه يشبه المنشار الذي يأتي على الخشب صعودا ونزولا. إنه الرابح الأول والأخير سواء في واقع "حداثي" ديموقراطي" أو واقع "أصولي ـــ محافظ".

بناء ذاكرة العدم

من أجل ضمان ترويج المنتوجات والخدمات، يمكن لمصممي ومنتجي الوصلات الإشهارية أن يبيعوا جميع القيم والمبادئ دون أن يخافوا لومة لائم أو يستحوا حتى من أنفسهم! فقد انقض رأس المال على كل شيء بما فيه ذلك ذاكرة الإنسان وقيمه ولحظاته الخالدة التي توج فيها حضوره ومارس فيها اختياره وخط مصيره.

في إحدى الوصلات الإشهارية (التي جاءت في شكل سؤال وجواب)، يعبر المجيب عن جهله بمكان انعقاد مؤتمر أنفا وعدد المشاركين في المسيرة الخضراء، ثم يستظهر جواب المنتوج/الخدمة المعلوم. هكذا، بجرة قلم، وبكل الوقاحة التجارية الرخيصة، يقال لنا: لا يهمكم تاريخ العالم ولا تاريخ بلدكم، ما يهمكم هو ضمان

مستقبلكم وتأمين حياتكم ومماتكم، امحوا ذاكرتكم الجماعية والإنسانية وقدسوا أنفسكم كأفراد وابحثوا عن ضمان لعيشكم، وبعدكم فليأت الطوفان.

إن السياق الوطني والعالمي الذي يمكن أن تقرأ فيه دلالات هذه الوصلة الإشهارية هو سياق العولمة وسلطان الإمبريالية التي نصبت السوق قانونا كونيا يفوق في حجيته جميع القيم و المبادئ الإنسانية. فهي لا تعترف بالتاريخ أو الجغرافيا أو الذاكرة أو المعنى.. وإنما تبني ذاكرتها الفارغة من أجل صناعة إنسان القرن الحادي والعشرين... ذلك الإنسان الذي سيكون ملائما لمنطقها، خادما لأعتابها التجارية والمالية، مطيعا لأوامرها الإشهارية ما ظهر منها وما بطن.

هكذا تكون سياسة الإشهار المعولم هي التبول الإرادي على كل من وما من شأنه أن يقف في طريق تحقيق الأهداف المنشودة... والعمل بثبات وإصرار على تشييد ذاكرة الخراب والعدم، حيث يصير المعنى هو الوهم الذي تزينه الوصلات الإشهارية البئيسة والخبيثة.

تسليع المرأة

أضحت صورة المرأة في الإشهار وبرامج التربية والتعليم من الموضوعات التي تشتغل عليها الجمعيات النسائية والإعلامية، وتنتبه إليها مختلف القنوات التلفزية في بعض برامجها المخصصة للنساء فقط.

ولاشك أن الطابع الإشكالي لهذا الموضوع لا ينحصر داخل مجتمعاتنا العربية الإسلامية الموسومة عن حق وعن باطل معا بوضعية المرأة المزرية وتبعيتها التامة للرجل... وإنما يمتد ليشمل الشرط الإنساني للبشرية جمعاء.. وشروط تكون مفهوم المرأة ومفهوم الرجل في تاريخ الإنسانية.

وهذا ما يجد انعكاسه الواضح في تاريخ المرأة الغربية الحديث والمعاصر حيث إنها انتزعت حقوقها على مراحل طويلة، بل وتأخرت في بعضها عن دول إسلامية أو ثالثية يشار إليها بالتخلف واضطهاد المرأة وغيرها من الأوصاف التي يرمى بها مجانيا هنا وهناك.

إن أوراق اللعب الجديدة التي وزعها سدنة العولمة وحراس السوق وعبدة رأس المال لم تعد تفرق بين امرأة وأخرى... شرقية كانت أو غربية... فكل الطرق تؤدي إلى جيب المستهلك واكتساح الأسواق وخلق الحاجات الضرورية أو الوهمية عند الناس ليهبوا عن بكرة أبيهم للانتفاع بالخدمات المقدمة لهم.

هكذا، تصير المرأة أداة مادية وسلعة تخدم سلعا شتى.. حتى إننا نراها مجرد دمية جميلة ضاحكة منسقة الأعضاء من رأسها إلى قدميها... أو نراها تضطلع بوظيفتها التاريخية في بيت الزوجية حيث تعمل بهمة وجدية في انتظار عودة الزوج المزهو بقميصه الأبيض الذي نظفته له بمسحوق عجيب! لقد تحالفت العولمة مع الرواسب والشروط التاريخية من أجل محاصرة المرأة وتأبيد وضعها كأنثى تختلف "بديهيا" عن الرجل، وتصنف في أسفل قوائمه الذكورية.

تحولات في استراتيجيا الافتراس الرأسمالي

"عليكم بالبحث عن المال حيث يوجد، أي لدى الفقراء. و إذا كان الفقراء

لايتوفرون على كثير من المال، إلا أن هناك كثير من الفقراء"..

موريس ألي Allais، خبير دولي في فن الانقضاض على الآخرين،

في اجتماع أمام مجموعة من كبار رجال الأعمال في العالم..

في الأسابيع القليلة الأخيرة، توصلت من أحد الفاعلين في مجال الاتصالات بالمغرب بعدد كبير من الرسائل كلها حث على المشاركة في قرعة لربح سيارة "فارهة". لم أعر الأمر في البداية أي اهتمام يذكر.. لكن مع توالي وصول تلك الرسائل، قررت أن أفضح ما أعتبره اعتداءات غير مقبولة على واحد من أهم حقوقنا الإنسانية، الذي هو الحق في حياة خالية من التشويشات الصبيانية..

كيف نفهم توصل الكثير منا بهذه الرسائل التي لم نطلبها أبدا؟ أتصور أن لاشيء يمكن أن يمنحنا تفسيرا ضافيا شافيا غير نظرية السعار، تلك الحالة

التي تجتاح المرء اثر إصابته بلوثة مهيجة نادرة.. و لكن ما معنى السعار في حالة الرأسمالية؟

كلنا نعلم أن المغرب يوجد – ومنذ فترة ليست بالقصيرة– ضمن دائرة خاصة من الدول المعول عليها لإنقاذ الغرب من أزماته الخطيرة الحالية.. و كل المعطيات المتوفرة تشير إلى أن كبرى الدول الغربية (فرنسا على وجه الخصوص) تمارس -كما مارست في السابق- ضغوطات لايمكن تصورها على الدولة المغربية حتى "تيسر" لها الانسلال نحو أكبر مواردنا- كمدخل هام جدا من مداخل التنفيس عن أزماتها.. و إذا كانت قوى الافتراس الدولي قد رفعت مؤخرا من سقف تطلعاتها التوحشية، فالسبب – بالإضافة إلى التكاثر الشديد في عدد الحيوانات المفترسة العاملة على الساحة- هو استحالة أو على الأقل صعوبة التعويض/التغطية على أزماتها من داخل مواطنها.. لقد فهمت القوى/المراكز الرأسمالية أمرا أساسيا، وهو أن التسريع من الانقضاض الشامل على الأطراف و تحويل مواردها "السايبة" (غير الخاضعة للمراقبة) نحو الشمال هو أحد أهم وسائل الإبقاء على مستوى العيش الغربي و تفادي التأزم/الانهيار

الداخلي الكفيل بإعادة الغرب إلى أجواء بداية القرن العشرين الرهيبة، الأجواء التي كانت وراء انبعاث الفاشيات التي كادت أن تقضي على المراكز الغربية برمتها[1]..

ومع ذلك فإن أكثر ما يفسر توجيه الفعالية الافتراسية صوب الأفراد – في حالة الرسائل المحفزة على المشاركة في القرعات السابقة الذكر– هو إحساس المراكز الغربية باقتراب نضوب الموارد التقليدية للدول/الأطراف المنهكة.. لقد فهم الغرب أن الفرد هو قارته العذراء الجديدة.. في الواقع، نحن نوجد هنا أمام تحولات جذرية و غير مسبوقة في ممارسات النهب الدولي، وهو ما يوضحه –بالنسبة لعشاق التحف السينمائية- فيلم/تحفة **Repomen** (

---

[1] شكل التوقيع على تنفيذ مشروع قطار "التيجيفي" الذي سيكلفنا حوالي أربعة مليار أورو من قوتنا أخر مثال عن استعداد" المغرب الدائم لإنقاذ فرنسا (هنا الشركة الفرنسية العملاقة السطوم Alstom التي كانت على حفا شفرة من الانهيار لأسباب خطيرة لاتهمنا هنا) حتى و لو على حساب أمنه المالي و الجيواستراتيجي و قبل كارثة التيجيفي"، كانت عملية تفويت" قطاعات السكر و الزيت و الحليب و الاسمنت و الاتصالات و الماء و الكهرباء و التطهير و التبغ و الأبناك و... لمجموعات فرنسية (و ثانويا لمجموعات اسبانية) قد كشفت عن هول إذعان صانع" القرار المغربي ل"الأب" التاريخي والأبدي-الفرنسي. و يبدو أن الأمور لن تقف عند هذا الحد، و أن "حكامنا" سائرون بثبات في طريق إعادة البلاد للمستعمر "السابق"، في لعبة سوف تكون فاتورتها ثقيلة و ثقيلة جدا..

بطولة المتألقين جود لاو و فوريست ويتاكير) الذي يصور كيف أن شركات متخصصة في بيع و زرع الأعضاء البشرية لاتتردد في استعادة "مبيعاتها" من داخل بطن المريض المستفيد ما إن يعجز عن أداء ما بذمته لديها..

إن الرأسمالية الأصيلة، أي الرأسمالية الافتراسية بشكل كامل، لاتعرف و لم تعرف أبدا المجانية **Gratuité**، و لايمكنها أن تتصور وجود أية موارد (معدنية، فلاحية، بحرية، بشرية...) خارج مراقبتها.. لقد أحست الرأسمالية بقوة باقتراب نفاذ الموارد في المراكز و الهوامش على حد سواء، فكان القرار الجيواستراتيجي بالتوجه نحو تلك الموارد/الخزانات البشرية "الضائعة"، موظفة في ذلك أدوات اغوائية خطيرة من مثل الرسائل السابق ذكرها.. تنتظرنا في الحقيقة أيام صعبة.. و ليس أمامنا إلا الفضح، فضح كل تلك الحيوانات المفترسة الطليقة بين ظهرانينا في تحدي لامثيل له للأمن الفردي و الجماعي..

مجاعة النيجر :

مشاهد من حكاية قتل جماعي منظم

فاجأتنا وسائل الإعلام الدولية مؤخرا (أواسط شهر أبريل 2010) بخبر زحف المجاعة على مناطق واسعة من النيجر.. وأشارت نفس الوسائل عن حق إلى أن ما يحصل في هذا البلد خطير جدا و يهدد بالموت ما لايعد و لايحصى من الساكنة الضائعة و غير الفاهمة لما يحصل لها..

إن ما يقع في النيجر قتل جماعي منظم حتى لا أقول مبرمج.. هدف هذه الورقة هو كشف الغطاء عن بعض خبايا الجريمة و استعراض بعض المقترحات الكفيلة بمنع إعادتها..

يتوفر النيجر -هذا البلد الشاسع (حوالي مليون و مائتي ألف كيلومتر مربع) - على احتياطات هامة جدا من مادة تشكل المحرك الأول لكثير من الصناعات الحيوية هي مادة اليورانيوم.. إن السؤال هنا هو: كيف لبلد "يتحكم" في مثل هذه الثروة النادرة أن يصل إلى ما وصل إليه؟ كيف لبلد من

المفروض أن يكون غنيا جدا بالنظر إلى ما يتوفر عليه من مواد مطلوبة و بأثمان عالية في السوق العالمية أن يحتل المراتب الكارثية على سلم مؤشرات التنمية الدولية (المرتبة 179 في التقرير الأممي لسنة 2011 الذي وضع كما نعلم المغرب في المرتبة 130)؟ باختصار، لماذا لم و لا ينفع اليورانيوم النيجر في شيء؟[2]

نعثر على الجواب عن هذه الأسئلة المحيرة عند السيدة آن لوفيرجون، مديرة المجموعة النووية الفرنسية أريفا Areva ، التي صرحت في عز "الأزمة" الدولية سنة 2008 بأن شركتها توجد في صحة مالية جيدة.. ما علاقة السيدة آن و مجموعتها بما نحن بصدده هنا؟ لنفهم ذلك، يجب أن نعلم أن هذه المجموعة هي التي تحتكر استغلال مناجم اليورانيوم في النيجر، استنادا إلى عقد

---

[2] في الاكواتور، البلد البترولي بامتياز، يعاني أكثر من 80 % من الساكنة من كل الأعطاب الاجتماعية الممكن تصورها، و السبب هو سطو الأمريكيين على مجمل أبار البترول، المورد الأكبر بالبلاد.. و لايختلف الوضع في المغرب كثيرا عما هو عليه بالاكواتور، ففي بلدنا ذي الثروات السمكية و الفلاحية و الفوسفاطية الكبيرة جدا لازال أغلبنا يعانون من الفقر و الهشاشة و سوء التغذية بسبب استحواذ أقلية مافيوزية (مشكلة من لوبيات مغربية/خارجية و فرنسية بالخصوص) على مجمل مواردنا..

كارثي تنفذ من خلاله أريفا سياسة ريعية احتكارية لا تترك أي شيء للسكان المحليين مما يقوض في الجذر كل فرص التنمية بالبلاد..

لكي نفهم الوضع أكثر لابد من الرجوع بعجالة إلى الاتفاقيتين الخطيرتين اللتين وقعتهما الدولة النيجرية سنة 1968 و اللتين لازال مفعولهما ساريا مع الشركتين المتخصصتين في استغلال مناجم اليورانيوم وهما صومايير **Somair** و كوميناك **Cominak**. إن ما يثير في تلك الاتفاقيتين أنهما لاتتضمنان أية إشارة إلى ضرورة تنمية المناطق النيجرية لا المحيطة و لا البعيدة عن المناجم.. كما أنهما لاتتضمنان – في احتقار مفضوح أخر للنيجريين– أي تفكير استباقي في التدميرات المحتملة للاستغلال على صحة العمال و الساكنة المحلية.. كل ما تشير إليه الاتفاقيتان هو التزامهما ببناء مدارس و فضاءات الراحة و الاستجمام لأطر الشركتين !!!

نحن إذن أمام بلد هو الثالث، نعم الثالث عالميا في إنتاج اليورانيوم و يعيش مع ذلك حالة نقص حاد في المواد الغذائية الأولية.. كيف وصلنا الى هذه التراجيكوميديا؟ هل نرجع ما يقع إلى خيارات متسرعة قاتلة للحكومات

النيجرية؟ أم نلوم الدولة الفرنسية التي أعماها مخدر "التوسع في العالم" عن رؤية كارثة السطو و الافتراس؟

في الحقيقة، يتعلق الأمر ب"أخطاء" استراتيجية لاتغتفر.. في الحالة التي نحن بصددها، من الواضح أن النيجر وقع، ومنذ اللحظات الأولى "لاستقلالها"، ضحية شهية دولة "متنورة، حداثية و ديمقراطية"، هي فرنسا، لم تخجل من إطلاق واحد من أشرس كلابها على واحد من أكثر الشعوب لطفا في العالم.. إننا هنا أمام نفس الممارسات الكانبالية لنهاية القرن التاسع عشر، الشيء الجديد أنها تمرر في قوالب لغة التعاون الدولي "المثمر" كما في التعابير الخشبية للمسؤولين النيجيريين و الفرنسيين الفاسدين..

إنه لمن العار أن تفتخر السيدة آن لوفيرجون بالأرباح التي تحققها مجموعتها بالنيجر وهي تعلم جيدا أن تلكم الأرباح تنتج مخلفات "عرضية" هي ما نشاهده اليوم من ألاف الضحايا الجوعى.. لا أفهم كيف يمكن لإنسان أن يعبر عن سعادته بنتائج مالية يشكل تفاقم جوع النيجيريين الوجه الأخر غير المشرف في المطلق لها.. من العار، كذلك، ألا ينتفض المثقفون الفرنسيون

الأحرار في وجه هذه الفضيحة الدولية.. وإذا استثنينا بعض الأسماء التقدمية الحقيقية (ادغار موران، جيل ليبوفتسكي، ايمانويل طود، جوزيف هاسيل، ادوي بلينيل صاحب الموقع الرائد "ميديابار")، فإننا لا نكاد نسمع صوت من لا يتوقفون على التنديد صباح مساء بالحجاب و "بخطره الاستراتيجي" على الغرب بل وعلى مستقبل العالم !!!!.. إن أشخاصا من مثل برنار هنري-ليفي -حتى لا أخذ إلا هذا المثال الصارخ- مدعوون إلى النظر أبعد قليلا من مقاود سياراتهم الوقحة، و إلى قول الحقيقة كاملة حتى و إن كانت تضر بالمصالح "العليا" للدولة الفرنسية..

في أواسط الخمسينات، خرج صحفي فرنسي لم أعد أتذكره بمقال شهير بجريدة "لوموند" منحه العنوان الدال التالي: "إفريقيا انطلقت بشكل سيء" « **L'Afrique a fait un mauvais départ** » . كان هذا الصحفي المنتبه يريد أن يقول بأن إفريقيا لم تستقل إلا شكليا و أن أغلب مواردها ظلت تحت قبضة القوى الاستعمارية..[3].. إن ما يحدث مع بداية

[3] بطبيعة الحال، هناك دول حاولت الانتفاض، و نحن نعرف المصير الذي تعرض له زعماؤها مع مسلسل الاغتيالات على يد المخابرات الغربية و الإفريقية العميلة

الألفية الجديدة لا يختلف كثيرا عن أوضاع الستينيات.. و حتى نتفادى إعادة إنتاج الأخطاء التاريخية الكبرى، علينا أن نتذكر جيدا أن عدم الحسم لحظة التفاوض في الملفات الإستراتيجية يقود إلى خسائر اقتصادية و بشرية فظيعة.. إن ما هو مطلوب، هنا و الآن، هو أن نتحدث بنبرة مغايرة، و نعبر عن غضبنا، و ندافع عن مواردنا، إذاك سنفرض احترام القوى الكبرى، إذاك سيكون من الممكن كتابة مقال "إفريقيا على سكة الانطلاقة الصحيحة"، ردا على النبوءة الاستفزازية و لكن الجميلة الخمسينية[4]..

من كل نوع، و منها للأسف مخابرات الحسن الثاني الذي لم يتردد في وضع "خبراته" رهن إشارة الامبرياليات الغربية في كثير من المواقع الإفريقية التي حاولت "الخروج عن الطاعة" (الكونغو، الغابون...)

[4] يقدم طيب رجب أردوغان – الذي يسعى إلى أن يضع بلده ضمن القوى العالمية العشرة الأولى في أفق سنة 2020 - درسا استراتيجيا كبيرا للحكام الذين اختاروا "بيع" موارد و ثروات بلدانهم للقوى الدولية مقابل مصالح صبيانية خاوية.. على الدول الذيلية مثل النيجر و المغرب- أن تتمثل جيدا الدرس التركي قبل فوات الأوان..

قضية دومنيك ستروس كان:

عن أي اغتصاب نتحدث؟

كيف لمن يسبح في المال

(سواء من خلال منصبه أو من خلال ثرواته "الخاصة")

أن يهتم بمصير جيوش الجوعى في العالم؟

ظهر المدير السابق لصندوق النقد الدولي أوائل شهر أكتوبر من سنة 2011 على القناة الفرنسية ط.ف. 1 "ليشرح" ملابسات القضية التي وجد نفسه متورطا فيها و المتعلقة كما نعلم بمحاولة الاعتداء الجنسي على عاملة النظافة نافساتو ديالو بإحدى غرف فندق سوفيطيل بنيويورك.. لن أقوم في هذه السطور بتفكيك "التقنيات التواصلية" التي وظفها ستروس كان لتبرئة ذمته - وعلى رأسها فيما أتصور تصنعه المحترف للإحساس بالذنب- بقدر ما سأحاول التوقف عند جملة تفوه بها في لحظة غفلة "إنسانية" في محاولة يائسة و غير مثيرة للشفقة لجلب التعاطف.. ففي لحظة من لحظات "الاعتراف" حاول

ستروس كان أن يفهمنا بأنه إنسان يغلط و يعترف بغلطه بكامل الشجاعة كأي إنسان "عاد" (تفاديا ربما لاقامه بانتمائه لما يسميه جان بودريار الجماعة البشرية مابعد الإنسانية، تلك التي لاتحس بأي ذنب بل تستمتع غاية الاستمتاع و هي تحول غالبيتنا إلى عبيد جدد تعتبر خدمتهم لها من صميم مهمتهم فوق الأرض، في نقل واضح لممارسات فيوداليات القرون الوسطى) و أن محاولته ربط علاقة جنسية مع السيدة نافساتو — التي لم يتوجه نحوها بأية كلمة اعتذار مما يقوض في الجذر كل الألاعيب الرديئة التي حاول حبكها في اعترافاته– لم تكن سوى لحظة ضعف إنسانية و "خطأ" أخلاقيا « **faute morale** » كما عبر هو نفسه..

هاكم أولا الجملة المعنية: "عندما وجدت نفسي أمام المحكمة، أحسست أني أمام آلة مستعدة لكي تطحنني **va me broyer** .. لقد كان إحساسا رهيبا لم أعشه بتاتا من قبل و لم أكن مستعدا لتحمله"..

ياسلام.. قائد أكبر منظمة تدمير غير مرئي في العالم (هي صندوق النقد الدولي المسؤول الأهم عن طحن ملايين البشر بإغراقهم بديون جروا إليها

جرا لكي يسقطوا في شباكها الصعبة الاختراق كما حصل مع المغرب بداية الثمانينات و لازلنا نؤدي عليه الثمن الباهظ جدا كما نعلم) قلت مثل هذه الشخصية التي لا مشكلة لها مع اغتصاب/طحن الشعوب بلا حماية تقفز مذعورة (أو تدعي الذعر) بفعل تورطها في اغتصاب "تافه" في حق سيدة من سكان الطبقات السفلى للكوكب.. قائد أخطر آلة دخول جنسي "شرعي" لما بعد الحرب العالمية الثانية ينهار (أو يدعي الانهيار) بعدما خدشت بعض من أوهامه الفحولية (و على رأسها هنا وهم "خليني نغتصبك و لا نغضب"[5]) في ردهات المحكمة.. قائد أشد المؤسسات الدولية دعما لديكتاتوريات الاستباحة (المالية/السياسية/الاجتماعية/الجنسية) في العالم يرتعب (أو يدعي الرعب) عند أول سقوط رمزي تافه !!! ألسنا هنا أمام استمرار للاغتصاب (اغتصاب نافيساتو و نحن جميعا) بوسائل أخرى؟

لن أعود إلى مجموع ما فعله صندوق النقد الدولي بالشعوب في الستين سنة الأخيرة (مغربيا يعتبر كاتب هذه السطور أحد ضحايا هذا

---

[5] "دعني أغتصبك و إلا غضبت !!! "..

الصندوق بفعل برنامج التقويم/الهدم الهيكلي الذي "أملاه" على المغرب و الذي قوض و لازال كثيرا من حقوقي الاجتماعية).. سأذكر فقط بالعقائد الإستراتيجية للسيد ستروس كان خلال فترة توليه رئاسة الصندوق و خصوصا خلال فترة الأزمة المالية العظمى التي لازالت تلتهم كل شهر دولة أو دولتين..

ففي عز الأزمة كان هذا "الاشتراكي" الذي لايشق له غبار في قضايا المالية عالية الدقة **La haute finance** من أكبر المدافعين عن الخيارات اللبرالية التقليدية – والكانبالية– لسادة الاقتصاد العالمي.. لم يكن السيد كان يتردد في الدفاع عن الأنوية الجذرية لرأسمالية النهب المنظم للعالم خلال كل النقاشات الساخنة التي جرت حينها ومنها:

-أنه لايمكن الوقوف في وجه العولمة و أنه لاخيار أمام الكل غير التأقلم معها..

-أنه إذا كانت العولمة قد مكنت بعض الأطراف من مراكمة أرباح خيالية غير مقبولة (البنوك التي ضاربت بأموال البشر) فهذا لايعني أنه يجب

لعن أو التشكيك في مبدأ المغامرة الليبرالية المحرك الأضمن للاقتصاد و حاميه الأول من التوقف و الركود و الانهيار !!!

-أنه يجب الاستمرار في دعم الأبناك الإطار "الطبيعي" الأقدر على مد الاوكسيجين صوب شرايين الاقتصاد مع عدم إلزامها بأية قيود من مثل فرض حضور الدولة في رأسمالها !!

-أنه يجب الحفاظ و بكامل الصرامة المطلوبة على نظام التبادل الحر لأنه النظام الأكثر تحفيزا على الفعل الاقتصادي ..

-أنه يجب الاستمرار في دعم الدولار أولا و الأورو ثانيا و إلا سقط العالم في يد عملات عدوة..

تكشف هذه العقيدة المنظمة جيدا عن الولاءات الجذرية للسيد كان.. يجب أن نضيف إلى هذه الولاءات ولاء أخر، من طبيعة "شخصية"، ويظهر بقوة – لمن لايعرف ذلك– في نوع خيارات و معاشرات السيد كان، ذلكم "المناضل" الذي لم يخفي أبدا حبه للكافيار النادر و الرياضات المراكشية و السيارات الهوليودية و العطل التي تكلف ما تكلفه فوائد ديون مجموع الدول

"المتعاونة" (حتى لا أقول شيئا أخر لابد و أنكم فهمتموه جيدا) مع الصندوق

و سادة الصندوق..

Touristes et voyageurs

أو خط الهروب خارج الرأسمالية

في مكان ما من "فخ العولمة" – وهو الكتاب الذي يجب أن تلقن المدرسة أفكاره العميقة للمغاربة لعل و عسى أن يفتحوا أعينهم و لو قليلا على بعض قضايا و رهانات عصرنا– يحكي الاقتصاديان الألمانيان هانس بيتر مارتن وهارولد شومان عن ذلك الخبير المالي الجهبذ الذي تبعث به المؤسسة التي تشغله نحو البقاع الأربعة للعالم في مهمات مراقبة و مواكبة لمختلف فروعها.. يحكي اقتصاديانا كيف أن الخبير لايغادر طائرة و بشكل أدق الدرجة الفاخرة في طائرة فاخرة إلا من أجل الالتحاق بغرفة فاخرة في طابق ملكي في قلب أوطيل أكثر من خرافي.. يضيف مارتن و شومان أن خبيرنا لايعوزه أي شيء لتأدية مهامه بكامل الراحة: فمؤسسته توفر له أحدث تكنولوجيات الاتصال، و أفخم الملابس و الاكسسوارات، و "أخطر" البطاقات البنكية التي تمكنه من ولوج أرقى محلات الأكل و الاستجمام و الشوبينغ.. ومع ذلك، و مع كل

هذه الترسانة غير المسبوقة، ينقص صاحبنا شيء أساسي، بل الشيء الأساسي..

فوسط كل هذه "السعادة"، بل و بسببها، يعاني خبيرنا - فيما يوضح كاتبانا في نوع من التحليل النفسي الذي لايمكن أن يفهمه كثير من المحللين النفسيين عندنا- من إحساس مدمر بالعجز التام عن العيش، العيش العادي. فهو يحس في عمقه الغابر أنه لاينتهي من مهمة إلا لينطلق في أخرى، و لايغادر طائرة إلا ليركب أخرى، و لا ينهي مكالمة إلا ليبدأ في ثانية و ثالثة و رابعة تشرح له ما يتوجب عليه فعله في الساعات المقبلة، و لا يستهلك مكافأة إلا للحصول على بونيس أشد و أعظم.. باختصار، بنكينا شخص "مضروب بالحبس"، حبس لاوجود لأية وسيلة للخروج منه غير اتخاذ قرار أنطولوجي حاسم بالعودة للعيش مع البشر الأحرار الذين يسكنون عالمنا..

تشكل حالة خبيرنا النموذج المثالي لما أسميه السائح.. فالسائح هو كل شخص يتوهم أنه يتنقل عبر العالم في الوقت الذي لايتنقل إلا داخل الغرف المغلقة و المعقمة- ضد العالم، ضد الهواء، ضد الضوء، ضد التراب، ضد الوجوه، ضدنا، ضد ذاته.. يتوهم السائح أنه يخرج نحو العالم في الوقت الذي

لايخرج فيه إلا نحو "خرائط" مشوهة دون مستوى الجغرافيات الملتهبة و الواسعة للعالم..

السائح هو أي واحد منا يزور مدينة "تاريخية" فيما هو لايزور سوى معالمها المفبركة في كتب الأسفار السياحية.. نعلم أن المدينة على أرض الواقع ليست هي إطلاقا تلك المعروضة في كتب الأسفار.. المدينة الموجودة في كتب الأسفار هي مدينة "استيهامية"، مدينة من صنع من يريدون إيفادك نحو معالم دون أخرى، و نحو أناس دون آخرين، و نحو "مباهج" دون أخرى.. في العمق، السائح صناعة مطلقة لمفبركي كتب الأسفار، يرغب رغباتهم، و يرى العالم بأعينهم، و يفرح لما يريدون أن يفرح من أجله، و يفرغ جيوبه هناك حيث توجد حساباتهم.. المضحك في القضية كلها أن السائح المقتاد يعتقد بقوة أنه سيد سفره و حاكم تحركاته و المفترع الذي لايشق له غبار لجغرافياته..

أما المسافر فله استراتيجية أخرى.. فهو لايزور المكان لأنه سبق له أن زاره في كتاب سياحي.. هو مغامر باحث عن المكان غير الموجود في الخرائط، المكان الأكبر من الخرائط، المكان ربما المضاد للخرائط على دقتها و جمالها..

يبحث المسافر عن أماكن/وجوه أتحدى أي واحد أن تكون له كوة الضوء التي تنبعث منها، كما يعلمنا الياس كانيتي و جان جوني في حكيين عجيبين.. في سفر نحو بلجيكا (1976)، يحكي جوني عن لقاء تم بينه و بين رجل "قبيح الوجه" داخل قطار. يعترف جونيه أولا بأنه لم يكن يرفع وجهه نحو الرجل إلا لماما، و عندما كان يفعل ذلك ففي الغالب بهدف تفادي ذلك الوجه "الذميم". ثم، وفجأة، يقول جوني، "انتابني شعور فريد بنوع من الانتعاش الغامض، شعور بأن كل رجل يساوي بدقة– و ألح في كلمة "بدقة"– أي رجل أخر فوق هذه الأرض. قلت في نفسي: "كل رجل يستحق أن يحب خارج ذمامته، أو غبائه، أو خبثه. كل رجل يحمل جرحا، معاناة، صراعات/تناقضات دفينة يستحيل للقراءات الأكاديمية أو قراءة الإنسان العادي أن تكشفها". لا يمكن الكشف عن هذه العوالم الداخلية، يلح جونيه، إلا إذا تخلى الناظر عن زاوية نظره التاريخية العامرة بالأحكام الاجتماعية المسبقة المشوهة. لا يمكن تحقيق اللقاء الإنساني و الحار إلا إذا تخلى الناظر عن كل ما

يتدخل ليمنع الدلالة الخاصة و الفريدة و المنيعة للأخر من الانبثاق و التدفق على سطح اللقاء.

أما الياس كانيتي فيصف في زيارة لمراكش (1953) كيف أنه أحس كيف أن اللغة العربية أو الأمازيغية التي يحكي بها قصاصو ساحة "جامع الفنا" تحمل رسائل/صرخات/رجاءات إنسانية ملتهبة. في نصه، يجعلك كانيتي تحس بالحكواتيين، لأنه ينجح في أن يضعنا أمام إلحاح تلك الأصوات التي لا تتوقف، كما أنصت إليها و قدمها بشكل لايتكرر، عن مطالبتنا بالإنصات إليها و رعايتها و التضامن معها و حملها معنا أينما حللنا و ارتحلنا.

لنعد إلى السائح.. سيعتبر السائح الشخص الذميم "كمارة موسخة"، "شمكارا" يتوجب الاحتياط الشديد منه، و سينتظر بفارغ الصبر وصول القطار للالتحاق بغرفته المعقمة في الأوطيل المعزول للاغتسال من أية باكتيريا تكون قد انتقلت إليه من الكائن السفلي الخطير.. أما في حالة جامع لفنا، فسوف يدير ظهره عن حكواتيين يفيقون فيه الآلام غير المرغوب فيها و سيلجأ لإفراغ ثروته (و توتراته/تناقضاته المترامية) في كازينو أو بار أو دار دعارة أو متحف أو دار

أوبيرا أو أي مكان يمنح سعادة "فورية"، "سهلة"، "مباشرة"، "فعالة".. سيفضل السائح كائنات لم تعد تشبهنا، فيما سيفضل المسافر اقتسام الحياة مع من لايزال قادرا على التعرف و الحديث إلى ألامنا و تطلعاتنا..

و لكن كيف تتم صناعة السائح؟ سأحاول تقديم إجابة مختصرة جدا بسرد هذه الواقعة.. في نهاية الأسبوع الفارط، كنت في زيارة للعائلة بسلا.. كان الكل حاضرا كما جرت العادة مساء السبت في دار الوالد و الوالدة إلا الصغيرة م. الابنة الكبرى لأختي م. وعندما سألت أختي عن سبب غياب الصغيرة، أسرت لي بأنها ذهبت مع أطفال مدرستها في رحلة نحو "الموروكومول". لا أخفي أن صدمتي كانت شديدة جدا عند سماع الجواب.. و خارج أي خطاب منافق حول حرية البشر في فعل أي شيء بأبنائهم، أقول بأن إرسال طفلة تعيش فترة البحث عن خريطتها الخاصة في الحياة إلى فضاء يروج لرسائل لا قبل لطفلة بريئة بقراءة عنفها حتى لا أقول إرهابها كما سأوضح، قلت إن تنظيم مثل هذه الرحلة لايمكن أن يفهم إلا باعتباره استراتيجية — ضمن سياسة أكبر تشتغل بأذرع أخرى سأعود إليها في نص

لاحق- لصناعة بشر مبهور بمعروضات الموروكومول، و أضواء الموروكومول، و ايتيكيت و لغة الموروكومول. (وهو ما لمسته بشكل حي في اليوم الموالي عندما التقيت الصغيرة م. و استمعت إلى طريقة سردها لما "عاشته" أو بشكل أدق لما أريد لها أن تعيشه و بشكل أدق أن تستدخله و تفرح له في رحلتها الموروكومولية). هل يمكن أن نأتي سنة 2020 مثلا و نلوم عزيزتي م. على تطلعاتها الموروكومولية، على لهثها وراء حذاء يساوي 12 شهرا من السميك، أو وراء معطف يساوي عشر عمليات لزرع كليات لأمهات عاريات أمام الموت، أو وراء "كوليي" يعادل ترقية 3000 معلم، أو وراء رجل نهاب لكنه يحقق لها كل هذه الفانتازمات مجتمعة؟ بشكل عام، هل يمكن شهورا أو سنوات من لحظة الرحلة الموروكومولية أن نلوم الصغيرة م. على انغماسها التام في قضاياها "الخاصة" و انفصالها التام عن قضايانا، قضايا النهب و الفساد و الاستعباد؟.. هل يمكن أن نأتي سنوات من الآن، و نلوم الصغيرة م. على "اختيارها" جهة من يغتصبوا أمثالها في المناطق السفلى للعالم ليوفروا لها كل هذه المنتوجات الملغومة؟- وجب التذكير هنا بأن غالبية المنتوجات المعروضة

بموروكومول وغيره من المراكز التجارية العالمية الكبرى يصنعها أطفال داخل
معامل صينية و هندية و مكسيكية و مغربية و مصرية في شروط استعبادية
فضحها جيدا التحقيق الصادم الذي قام به صحافيان أمريكيان حول مصانع
"الأيفون" بالصين، الذي كان يملكه "المناضل" الراحل ستيف جوبز..

كرة القدم أفيون الشعوب

يحفل تاريخ البشرية بعدد كبير من أشكال الاحتفال واللعب والترفيه، حيث بذلت الشعوب القديمة والحديثة مجهودا ملحوظا للتعبير عن آمالها وآلامها والتنفيس عن الكرب التاريخية واللاواعية التي توارثتها وجددت علاقتها معها. وهي ألعاب من صهر الواقع و تفاعل الأفراد وابتكار العقل البشري الذي يمارس سيادته على الحياة بشكل سلس و جميل.

غير أن الزحف الإمبريالي وتسونامي الربح السريع واكتساح الأسواق والأذواق والأرزاق سرعان ما جعل أباطرة المال والأعمال ينقضون بالخصوص على الألعاب الشعبية ذات الامتداد الجماهيري الكبير من أجل تسويق منتجاتهم وتعديل الأمزجة والأذواق لتتلاءم مع درجة حرارة ذلك المنتوج والجهة المنتجة له...لقد كانت العديد من الدول المتخلفة و الديكتاتوريات المتعددة تستعمل الكرة وتسخرها لأغراض دعائية للجم شعوبها وتوجيه أنظار الشباب والشيوخ و حتى الرضع إلى الدفاع عن

القميص الوطني كحق كان يراد به باطل. كما شكلت وسيلة فعالة للتجييش و التوحيد و الهاء الناس عن قضاياهم و مشاكلهم السياسية و الاجتماعية والاقتصادية.

من ثمة، لم تكن التغييرات الرياضية الكروية في المغرب شأنا رياضيا صرفا، و إنما كانت دائما شأنا سياديا للدولة حيث تتدخل في الوقت الذي تراه مناسبا لخلخلة الوضع القائم و ترتيب وضع جديد يحفظ ماء وجه الدولة أمام الجماهير الغاضبة من هذه النكسة أو الإقصاء أو الهزيمة النكراء (الهزيمة أمام الجزائر في1979... هزيمة الغابون الأخيرة مثلا). ذلك أن الكرة مسألة جدية جدا لم و لن تترك للرياضيين وحدهم ما دامت توكل لها وظائف أمنية واجتماعية- نفسية تنعكس على الأوضاع العامة للبلاد.

انقضاض الرأسمال على الكرة

غير أن رياح التاريخ جاءت بما تشتهيه سفن راس المال الذي وجد في الرياضة بقرة حلوبا تدر الملايير. هكذا، صرنا نشاهد لعبة جميلة تربت فيها وبفضلها أجيال هي كرة القدم وقد تحولت إلى علامة تجارية عالمية يتوزعها الكبار الذين يخططون ويبرمجون وينفذون... ومن أولى نتائج هذا الانقضاض الأعمى هو فقدان حلاوة يوم

الأحد الجميل الذي ظل مرتبطا بكرة القدم وبمباريات الأحياء والبطولات الوطنية أو الدولية.. وصارت أيامنا و ليالينا كلها كرة القدم من أوروسبور إلى الجزيرة الرياضية إلى دبي الرياضية إلى غيرها من الخليجيات والأوربيات الرياضية طبعا.

وبعدما كان اللاعب كائنا بشريا "حقيقيا" يأكل ويشرب و يمشي في الأسواق، صار اليوم وجها إعلاميا وتجاريا وعميلا للعلاقات العامة والتسويق التجاري. كما خلقت طبقة من المتفرجين "تهيم حبا" في البطولات الأوروبية، وفي مقدمتها البطولة الإسبانية التي أصبحت في المغرب قضية وطنية تشغل بال العاطلين والشباب والحرفيين والعمال والموظفين ومن في حكمهم ممن يؤثثون البروليتاريا الجديدة. ذلك أنهم "يتسمرون" أمام "الجزيرة الرياضية" بالخصوص لمتابعة البث "الحي و المباشر" لمقابلات لا تشكل الكرة إلا نزرا يسيرا مما تخفيه من أخطبوط مالي و إشهاري و تسويقي لا أول له ولا آخر.

و لعل المضحك المبكي أن الملايين الطائلة التي تجنيها الشركات الراعية أو المستشهرة و الفرق/المقاولات المسجلة في البورصة و كبار اللاعبين لا يصل منها إلى حطب الآلة الإعلامية- الجمهور إلا الفتات القليل الذي يتخذ أشكال دعائية في بعض

الدول المتخلفة. ذلك أن ما يتقاضه نجوم الكرة التي يقام لها ويقعد في الملاعب و أمام الشاشات الصغيرة يفوق ميزانيات دول بحالها من دول الفقر المعمم على البلاد و العباد.. والحال أن بعضهم يصور وصلات اشهارية تبيع الحلم الوهمي لأطفال و شباب العالم الثالث. فهؤلاء وجدوا البؤس وراءهم و انسداد أفاق الانعتاق أمامهم، ولم يعد لهم إلا الحلم المعلب أو الموت.

لقد انتهت واقعية الرياضة (وكرة القدم بالتحديد) لتحل محلها لعبة اصطناعية مغلفة بطبقات كثيفة من الأوهام و الصور المصطنعة و الرغبات المعلبة و المتحركة بشكل دائم و مستمر خدمة لمن يحركون اللعبة من وراء حجاب. لقد ولى زمن اللاعبين الذين يلعبون حبا وطواعية. و منهم اليوم من يشكو الحاجة القصوى أو يتعفف عن الظهور حفظا لكرامته الإنسانية و تقليلا من خسائر الدهر الذي جعله بلا عمل أو حرفة أو دخل كسائر خلق الله. و منهم من أعطى ما تقدم من عمره كليا وحصريا ليجد نفسه وحيدا في خريف العمر القاسي. أما اليوم، فان اللاعبين الذين احترفوا الكرة لا تلمس قدمهم "جلدتها" إلا وقد ضمنوا مستقبل أولادهم وأحفادهم و ذوي القربى والأصدقاء.

و بخصوص علاقة هذا التحول مع الجمهور، لم يتوقف مفعول الانقضاض الرأسمالي عند كبار المتفرجين أو المشاهدين؛ بل تعداه إلى أطفال لا يتجاوز سنهم العاشرة ربيعا حيث لا يخفون ولاءهم و انتصارهم للبارصا أو الريال، و يفحمون آباءهم وأعمامهم في تتبع كل صغيرة أو كبيرة عن هذا اللاعب أو ذاك، أو عن "توعك" فلان أو إصابة علان. كما صارت أسماء المدن و البلدات الاسبانية اشهر من أسماء الأحياء و الأزقة التي يقطنها مريدو "الطريقة البارصاوية" أو "الريالية" (نسبة إلى برشلونة و ريال مدريد لمن قد يتظاهر بعدم الفهم!).

التيمم الكروي و السياسة !

و لعل الخطير في الأمر أن الأغلبية الساحقة من الكبار أو الصغار لم يسبق لها أن وطأت أقدامها ملعبا محترما للكرة وإنما تمارس عشقها الكروي بالتيمم بفضل الجزيرة الرياضية وتوابعها و أخواتها المتعددة. كما أنها لا تجد على ارض الواقع في الأحياء المغربية المتشابهة أي موطئ قدم لتحريك الكرة. هكذا، تصير المقاهي و البيوت (التي أنعم عليها أصحابها بالاشتراك) ملاجئ آمنة يؤدي فيها مريدو "البارصا" و أتباع

الزاوية الريالية طقوسهم الأسبوعية مباشرة أو عبر التسجيلات و اللقطات و التعليقات المتواصلة أناء الليل وأطراف النهار.

كما صارت مدرجات البطولة الوطنية و مباريات الوداد و الرجاء والجيش مجرد تمارين و تسخينات محلية باردة في انتظار "المعقول" الذي تجسده البطولة الاسبانية بشكل يستحق دراسات عميقة سيكولوجية واجتماعية وثقافية. و لأمر ما صارت نسب مشاهدة مباريات البطولة الاسبانية أو بطولة عصبة الأبطال تعادل أو تفوق نسبة مشاهدة مباريات المنتخب المغربي. هذه رسالة التقطها أولو الأمر الكروي في البلاد من دون شك، و هم يحاولون الآن إنقاذ ما يمكن إنقاذه (الجمع العام المرتقب و ما سيليه...) .

ذلك أن محرك الرغبة الجماعية في انتصار "البارصا" أو "الريال" يعكس الانهزام المتعدد على أرض الواقع و الأحزان الفردية أو الجماعية والفراغات الوجودية الهائلة التي تعشش في جسد المجتمع المغربي. و لأمر ما كذلك صار بعض المتندرين يعتبر الفريقين الاسبانيين اكبر حزبين في المغرب. وعلى من يريد الفوز في الانتخابات أن

يلبس قميص أحدهما و يعبر عن ولهه وهيامه به، و سيجر وراءه جيشا عرمرما من الأتباع.

لقد ماتت كرة القدم كلعبة واحتفال إنساني وتحولت إلى أفيون جديد يخدر العقول و يسوسها بلطف ودهاء عبر الحلم المعلب و تأبيد الأوضاع القائمة في البلدان المتخلفة التي استباحتها الشركات العابرة للقارات وعاثت فيها فسادا. وهذه إحدى كلمات السر وراء كل التحول التاريخي الجاري و الممتد في ما ستزودنا به الأيام.

شفرة البارصا

يدفع الالتفاف الشعبي الرياضي محليا و عالميا على نادي برشلونة لكرة القدم إلى طرح الكثير من الأسئلة التي تربط الفعل الرياضي المعولم بالفعل السياسي و الاجتماعي المحلي في بلد نام كالمغرب. ف"البارصا" بقدر ما هو فريق رياضي كاتالاني اسباني، بقدر ما هو رمز عولمي يكثف التحولات الكبيرة التي تفعل فعلها داخل المجتمعات و لدى مختلف الفئات و الشرائح.

من ثمة، لا حرج في طرح بعض الأسئلة: هل تكون البارصا هي المعادل الرياضي للفريق/الحزب السياسي الغائب؟ ألا يقدم النادي عروضا قابلة للمعاينة و القياس و بقواعد لعب كروية واضحة و تسري على الجميع، خلافا للواقع الموضوعي اليومي الذي تحكمه قواعد غير واضحة و بلا اثر على نفسية و آمال و أحلام الجماهير الرياضية و غير الرياضية؟ ما هي القيم المنبثقة من إمتاع البارصا لجماهيرها و ما هي علاقتها بالقيم الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية الجارية أو المؤسسة لها على نار

هادئة؟ كيف كان إجراء حوار أو التقاط صورة مع رئيس النادي حدثا جللا في المغرب و شرفا كبيرا لا يفوقه شرف؟.

من المفاتيح الأساسية التي يمكن أن تحل شفرة البارصا: وضوح الأهداف، المعرفة المسبقة بالخصوم، التعبئة من اجل مواجهة التحديات، الرغبة الدائمة في الانتصار، علو كعب النجوم و الخطط التكتيكية الموضوعة لشل الخصوم و إحراز الأهداف، التجسيد المستمر لصورة البطل، قيم البطولة و المواجهة و التحدي. و من منظور الجماهير، تحقق البارصا الحلم/الأحلام الكروية "البسيطة" التي تعوض الأحلام الواقعية المجهضة أو المقبرة في المهد. ذلك أن الفئات الشعبية من الطبقات الفقيرة أو المتوسطة مكبلة يوميا بالاحباطات و الاكراهات و الهزائم و الخسارات الفردية أو الأسرية أو الزوجية. تصير مباريات البارصا موعدا جميلا للفرح و الانتظار و الطموح والتعبير المباشر عن الإعجاب بميسي و غيره ممن يصنعون الفرجة الكروية الممزوجة بكل التوابل التلفزيونية في عصر العولمة.

إن التعلق بأهداب البارصا و نجومها الكواسر يجاوز التعويض عن الخسائر الفردية و الجماعية، ليصير مرتبطا بالهوية و الانتماء الفردي و الجماعي. في الشارع

المغربي، غالبا ما اسمع أصدقاء أو زملاء يتحدثون بشكل "طبيعي" و "عادي". من العبارات المتداولة: "انتوما عندكم فلان (ميسي أو رونالدو مثلا). حنا غادي نغلبو اوساسونا للي تعادلات معاكم. نتوما دداو ليكم اللاعب الفلاني. ما عمركم تحلمو بالبطولة. الحارس ديالكم مريض. المدرب ديالنا واعر...". و قس على ذلك من العبارات التي نسمعها يوميا تقريبا في المقاهي أو الشوارع و الأزقة الشعبية و القطارات و التجمعات الشبابية.. صار الصديقان المغربيان يعلنان "اختلافهما الكروي" و يدبرانه بالتي هي أحسن، حتى وان كان أنصار ريال مدريد تعرضوا و يتعرضون دائما للسخرية و "الشدان" و العنف الرمزي خاصة على اثر الهزائم الثقيلة ضد كوموندو البارصا.

وهذا ما يخفي مساهمة البارصا و الريال في خلق جمهور كروي كوكبي عابر للحدود و الأوطان و القارات. لم يعد المغربي أو المصري أو التونسي يعلن حبه للرجاء أو الأهلي أو الترجي فقط، بل صار الانتماء الحقيقي لنادي عالمي و عولمي. و يمكن القول إن كرة القدم ساهمت في زرع بذور مفهوم المواطن العالمي و سرعت من وتيرة تبلوره في ظل العولمة و تقدم تكنولوجيا الاتصال و البث التلفزيوني.

و تشكل انتصارات البارصا في السنين الأخيرة التجسيد البارز لعولمة الكرة. لم يعد النادي الرياضي لبرشلونة فريقا محليا، بل أصبح ناديا عابرا للقارات و فاتحا للحدود و جالبا للاشهارات و الاستثمارات و سفيرا كبيرا يمكن أن يفتح الأبواب و يحقق ما لا تستطيع تحقيقه الدبلوماسيات التقليدية أو الجيوش الجرارة.

لا بد من التأكيد أن ديموقراطية الاتصال السمعي البصري و بروز القنوات الرياضية الكبير قد غير الكثير من العادات و المفاهيم و انتج ظواهر جديدة يختلط فيها المالي بالاجتماعي بالثقافي بالتجاري. و هذا ما يطرح على علم الاجتماع المعاصر أسئلة محرجة تدعو باحثيه إلى إعادة النظر في الأطر الفكرية و النظرية الكلاسيكية و اختلاق مفاهيم جديدة تلائم مجتمع المعلومات و الاتصال العالمي.

المغرب و مخاضات الانتقال نحو الحداثة

نحو دين مختلف

إعادة بناء الدين، إعادة بناء الحياة

يشكل عيد الأضحى مناسبة جيدة لمسائلة فهم المغاربة "العفوي" للدين.. على هذا المستوى، تتفق مجمل الكتابات الأنتروبولوجية الغربية بل وحتى بعض الكتابات الإسلامية ذات التوجهات التفكيكية الواضحة (كتابات الصادق النيهوم و خليل عبد الكريم و محمد شحرور و عبد الرازق الجيران مثلا) على القول بأن عيد الأضحى خرج أو بشكل أدق تم إخراجه من دوائر دلالاته الوجودية المؤسسة الأولى كما سأقدمها و تم حصره في طقس جامد وبارد خدمة لأغراض سياسية مشبوهة سأشير إلى أهمها.. بعبارة أخرى، عوض أن يكون عيد الأضحى مناسبة للتداول في القضايا الحيوية للاعتقاد و الإيمان والعلاقة بالخالق و بالبشر، تم اختزاله في ممارسة تكرس للأسف صورة المسلم

اللاهث وراء حاجاته اللحمية القطيعية أكثر مما ستكرسه ككائن متأمل في الدلالات الثورية التي جاء طقس الأضحية الإبراهيمي لبثها وسط البشر.

في الحقيقة، إن عيد الأضحى كما هو ممارس الآن على طول خارطة الغبار الإسلامي هو نتاج سياسة خطيرة للغاية، هي سياسة فصل الدين عن محتوياته و رهاناته التقدمية. قاد هذه السياسة – فورا بعد وفاة الرسول عليه السلام– حكام لم يكن أبدا من مصلحتهم أن يطفو إلى السطح الدين المحمدي/الإبراهيمي الأول، الدين المضاد بطبيعته –من ضمن أشياء كثيرة من الصعب حصرها هنا– لكل محاولة قد تقودها أقلية للتضحية بالأغلبية في سبيل الاستحواذ على السلطة، في خرق سافر للرسالة الإبراهيمية ذاتها المنبعثة من قلب طقس الأضحى و الداعية لضرورة نحت تنظيمات لادموية، أخوية و مفتوحة للسلطة و للعلاقات البشرية بشكل عام كما سنرى في الأسطر الموالية..

في الواقع، لم تفكك الماكينة الإيديولوجية و "الدينية" للحاكم العربي فقط الحمولات الثورية لطقس عيد الأضحى.. لقد قوضت أيضا، و بشكل

أخطر، كل المقترحات التحررية الأخرى التي جاء بها الإسلام و قدمها كحلول فلسفية و سياسية لمشكلة الحياة.. تكفي الإشارة هنا إلى ثلاثة أمور كبرى.. أولا نظرية الإسلام في العدل.. أين هي دعوة الإسلام إلى شن الحرب على تراكم الثروة باعتباره المسؤول الأول عن تضخم السلطة وانجرافها إلى "التضحية" بالأمة حفاظا على مصالحها؟ ثانيا نظرية الإسلام حول المساواة بين البشر.. إلى أين آلت النظرية المحمدية الداعية إلى نحت نماذج اجتماعية يتعايش فيها الحاكم و العامل و الفلاح و المؤمن و الملحد؟.. فككت الآلة "الايديو-دينية" للحاكم كذلك الرسالة السياسية الجذرية الأولى للإسلام، تلك التي تلح على المؤمن في أن يجعل من الوقوف في وجه الفساد رهانه الديني الأول، (من منا يعلم الحديث: سأل شخص رسول الله عن الإيمان، فأجابه : "الإيمان هو أن تقول كلمة حق في مجلس حاكم جائر"؟؟؟).. و وضعت مكانها رسالة "دينية" مضادة، كلها مدح للنزوعات الفردانية، كحل "استراتيجي" لمشكلة الوجود الاجتماعي/السياسي للذات، هي رسالة "صلي و صوم و دبح و كول

و شوي و شنشط و نسا لعالم و باك و مك و لي خلقك كاع"..(صلي و صم و انحر و استمتع باللحم إلى النهاية، نهاية الخروف طبعا)..

لم يكن أبدا من مصلحة الحاكم العربي أن تفهم الأمة المعنى العميق لمشهد التضحية بالخروف.. و السبب هو أن هذا المشهد يحمل رسالة خطيرة للغاية على استقرار النظام الانتروبولوجي/السياسي كما رسخه الحاكم العربي منذ انقلاب معاوية، نظام -كما سبق القول- التضحية بالأمة في سبيل الجلوس أطول مدة ممكنة فوق كرسي "الربوبية البشرية".. لقد بذلت الآلة "الدينية" للحاكم الجهود القصوى حتى نفصل طقس التضحية عن جذوره و أسباب نزوله و نربطه بطقوس "دينية" غارقة في اللاجدوى و السطحية. يقول روني جيرار **René Girard**- ذلك العالم الكبير الذي لم تستوعب البشرية حدوسه الثورية بعد -بأن الله أنزل الخروف على نبيه إبراهيم حتى يفهمه بوجوب تحويل العنف من الابن نحو وجهة أخرى (الحيوان). إن الأمر يتعلق بدعوة إلهية قوية للبشر حتى لا يستنفذوا طاقات العنف الثاوية فيهم في الاقتتال فيما بينهم ويحولوها نحو أماكن أخرى، وهو ما نجحت فيه المجتمعات الغربية،

فيما يقول جيرار، التي استطاعت وضع العنف في يد مؤسسات متعالية على الأفراد (القضاء، المؤسسات، الانتخابات/التداولات الديمقراطية من كل نوع..) تدبره خارج دائرة الأهواء البشرية المتقلبة بالضرورة و المسؤولة الأولى كما نعلم عن إنتاج العنف و القتل بين البشر[6].

إن عجزنا عن تمثل الرسالة الالاهية العميقة الداعية إلى تحويل العنف من البشر نحو مؤسسات كتلك التي وضعها الغرب و أدار بها مشكلات الاصطدامات البشرية هو من أكبر أعطابنا التاريخية حتى لا أقول الدينية.. سنحتفل -لأول مرة ربما- بعيد الأضحى حين سننجح في هدم نسق استسلم لإرادة أقلية تخصصت في نحر و أكل لحم الأغلبية.. سيتحقق العيد الإبراهيمي عندما سنخرج من علاقات العنف و النهب و ابتلاع الحيتان الكبيرة للكائنات

[6] تعتبر القراءة التقليدية المعروفة، و غير المفهومة في جذريتها، أن الدعوة الى التضحية بالابن هي دعوة للتضحية بأي شيء غال جدا في سبيل التقرب من الخالق تعالى.. أنا من الذين يعتبرون أن هذه الدعوة الأساسية تحمل نداءا باهرا من أجل نوع من "الشيوعية" الأنطولوجية: نفي الذات من أجل الأخر.. يبقى فقط القول بأن أي عمل يقرب من الأخر (العفاف، الترفع عن الماديات، غرس الأشجار، التضامن مع من يعانون فوق هذه الأرض...) هو بشكل من الأشكال ممارسة مبتكرة لطقس الأضحى.. مرة أخرى، لم يكن أبدا من مصلحة الحاكم أن تتداول هذه القراءة لأسباب لابد و أن القارئ الكريم وعى بها..

بلا حماية و نؤسس نماذج اجتماعية يحمل فيها القوي الضعيف و يساعده على العيش بكرامة.. سنسعد بالعيد عندما سيرفض الأستاذ التضحية بطلبته إرضاء لذاتية منفوخة/مجروحة.. سنعيش أبهى صور العيد عندما ستمد الأم يدها لأطفالها و تمنحهم أدوات استكمال رحلة الحياة دون ألام كثيرة.. سيكون العيد عيدا حقا عندما ستعي المرأة -"تقليدية" كانت أم "حداثية"- بأن سعادتها توجد خارج أخلاق الجارية الفرحة بعبوديتها.. باختصار، سنحيي سنة العيد -لا ولائمه- عندما سنكسر دائرة حرب الكل ضد الكل و نقرر العيش معا منطلقين من المبدأ الديني/الصوفي/الجمالي/الإبراهيمي المركب التالي: إن كل شخص -كما يطرح المفكر الإنساني جان جوني- يساوي بدقة أي رجل أخر فوق هذه الأرض/ و إن كل رجل يستحق أن يحب خارج ملامحه الخارجية و معطياته المباشرة و لغته و ديانته/ و إن كل شخص قادر على تنمية ذاته و العالم من حوله لو أنصتنا إليه بما فيه الكفاية/ و إن هذه هي الوسيلة الوحيدة للإطلاع على عمق الإنسان/ و إن هذه هي الوسيلة الوحيدة لفهمه و التعاطف معه و حبه/ و إن هذه هي الوسيلة الوحيدة للتخلي عن كل رغبة في قتله..

واجب الإنصات و التواصل و التعاطف و قتل كل رغبة في القتل و التضحية: هذه الرسالة الالاهية للبشر من خلال الحكاية الإبراهيمية العجيبة..

في الأخير، و في سياق القراءة المقدمة هنا، لايمكنني إلا أن أندد بتحويل عيد الأضحى – ضدا على الرسالة الأنطولوجية الكبرى لهذا العيد ذاته– إلى مناسبة تستغلها مؤسسات القروض لذبح فئات عريضة من المغاربة المغلوب على أمرهم و الباحثين عن أي شيء يسعدون به في حياتهم الخالية من أية فرحة.. الجديد و الخطير هذه السنة (2011) أن عدد زبناء هذه المؤسسات ناهز ما يقارب مائة و عشرون ألف عائلة كما كشف مراقبون اقتصاديون مؤخرا، وهو ما سيرفع من أرباح هذه الوحوش ذات الشهية الافتراسية المترامية و يزيد بطبيعة الحال من تأزيم وضعية هذه الطرائد المثيرة للشفقة.[7].

---

[7] لو كان نبي الإسلام حاضرا الآن لمنع عيد الأضحى على الأقل للأسباب التالية: فلوبيات خطيرة حولته لمناسبة للاغتناء على حساب أغلبيات جائعة متلهفة للحم، وصناع القرار لأداة للتلاعب بالقطيع البشري الفائض عن الحاجة و إلهائه عن القضايا الكبرى، و أغلبيات مقموعة سياسيا و منهوبة اقتصاديا لفرصة "نادرة" لتصريف مكبوتات غابرة..

الموت الجاثم على صدر"المدينة"

أن تكون المدينة فضاء للحياة والتطوير والانعتاق والحوار هو أحد أصول نشأها في جميع الحضارات الإنسانية. لكن، أن تصير المدينة مرتعا لكل مظاهر القتل والموت وزرع الخوف وتعميم الظلام و قتل الفرد و تعميم ثقافة القطيع وممارسة عنف ناعم أو مباشر، فهذا شأن أغلب المدن الثالثية والعربية الإسلامية على الخصوص. و في سياق الهبة الانتخابية المغربية، يسرني أصالة عن نفسي و نيابة عن العديد من "المواطنين" أن أدلي بدلوي في بئر انتخاب مستشارينا الجماعيين عبر رصد بعض مظاهر قتل الحياة و التمدن في "مدننا".

فهناك مدن هجينة لا هي بالقرية (الجميلة المنسجمة مع محيطها) ولا هي بالمدينة (وما تتطلبه من تصاميم ومرافق ومواقف وسلوكات...)، وهناك مدن تخالها حمامات شعبية بكثرة الازدحام والدخان والصراخ والتلوث السلوكي والبيئي والسمعي

البصري، وهناك مدن لا يشفع لها في هذا الاسم سوى آلاف الأطنان من الإسمنت المتراكم من دون روح أو فضاءات يمارس فيها الإنسان إنسانيته (لا مسارح ولا سينما ولا مكتبات، بل وحتى مقاهي محترمة). هناك مدن نائمة نوما عميقا وشبه منعزلة عن العالم حيث إنها ترصد الغريب بمجرد وصوله إليها.. وهناك مدن لا تعرف إطلاقا معنى الثقافة أو الفكر أو الأدب ولم يشهد تاريخها تنظيم أي نشاط مدني (أو حتى عسكري)، وإنما هي مجرد سجن كبير لممارسة النوم والتوالد السخي الفائض عن حاجة البلاد والعباد.

كل هذا وغيره كثير يكشف عن الموت الجاثم فوق صدور مدننا العامرة بطوبها وإسمنتها المسلح أو المغشوش، والفارغة من مظاهر التمدن الحقيقية، لدرجة أن الحياة صارت داخلها عنوانا بارزا عن موت سريري غير معلن حتى وإن كان سكانها أحياء، وما هو بالأحياء و إنما شبه لهم. تراهم يمشون ويتخاصمون ويضحكون... وما هم إلا كائنات حية تأكل وتشرب وتنام وتستيقظ لتهرول إلى عملها وقضاء مآربها...

ليس بالماء والطعام يحيا الإنسان، وليست المدينة سجنا كبيرا للنوم والأكل والشرب... وإنما هي فضاء عامر بالحياة ومظاهر الانفتاح والانعتاق وتطوير الذات

والجماعة وممارسة إنسانية الإنسان في ثقافته وحضارته، وليس فقط في حيوانيته!

من جهة اخرى، تشكل تربية الأفراد على حسن السلوك في الفضاء العمومي المشترك من القضايا التي تؤشر على التخلف الباطن في كيفية حضور الإنسان المغربي والعربي داخل هذا الكون الشاسع و داخل "مدينته". ذلك أن الأمراض الاجتماعية والتربوية والنفسية غالبا ما تجد متنفسا لها في تصرفات الفرد وكيفية تدبير علاقته بالآخر وبالمحيط.

إذ تكفي الإشارة إلى مظاهر التدخين والزعيق وعدم احترام الطوابير وكيفية السياقة على الطريق وكيفية السلوك في الشوارع والأزقة القريبة من المساكن الفردية أو المشتركة.. وغيرها ليبرز العنف الذي "يفرغه" الإنسان المغربي ويعوض به عن آلام أمراضه الكامنة التي يقاسيها لوحده أو داخل نسقه الأسري.

وهنا يمكن دعوة عرابي المجتمع الديموقراطي الحداثي إلى إكمال ترسانتهم الحداثية للتفكير في الظواهر وتبيان كيفية السلوك الديموقراطي الحداثي داخل المجتمع المغربي عوض اختزالها في بعدها السياسي. فالحق في اقتسام الفضاء العمومي حق حداثي

يستدعي تربية فردية واجتماعية وتغييرا ثقافيا نسقيا وطويلا.. والتمتع الكامل بهذا الحق مظهر من مظاهر الانتقال نحو هذا المجتمع الموعود.

ولا يمكن بلوغ هذا الهدف إذا ما ظلت سارية مظاهر الزبونية والمحسوبية والتدخلات الفوقية والتحتية للإفلات من العقاب أو إبطال مفعول القوانين، لأنها تضاعف من عنف الأفراد وتأصل في وعيهم أن بإمكانهم أن "يلهفوا" حق الجميع إن كانت لهم حظوة أو وساطة أو قرابة لدى أولي الأمر من مختلف مستوياتهم.

إن الحق لا يكتسب معناه الحضاري إلا إذا كان نسقيا، أي له علاقة متعددة مع مختلف الحقوق الأخرى وله ضمانة أساسية هي الثقة في القواعد والمؤسسات التي ترعى تلك الحقوق الفردية أو الجماعية.

هنا أشير إلى أن المجتمع يولد عنفا ماديا ورمزيا قويا في علاقته بالفرد الذي يحاول اتخاذ مسافة معينة عن مواضعاته وقواعد سلوكه وكيفيات الوجود في مختلف مناحي الحياة... ذلك أن العلاقة الجدلية التعقيدية بين الفرد والمجتمع غالبا ما تنتهي إلى إنتاج الفرد الذي ينتج المجتمع الذي ينتج الفرد وهكذا. غير أن الفرد المنزاح والمهادن

يدفع الثمن من خلال عنف المجتمع الممارس عليه، والذي يدفعه إلى الانعزال الذاتي أو إلى عزله جماعيا، لعل وعسى يتوب ويعود إلى الحظيرة المجتمعية الكبيرة.

هكذا، ينتقل منطق القبيلة والزاوية والحزب والعائلة والعشيرة، و يتدخل المجتمع في جلد الفرد لاختيار مواقفه وسلوكاته وطريقة تدبير حياته. ذلك أن كثيرا من الاختيارات الفردية مرفوضة مجتمعيا ويتعامل معها على أنها مواقف أو سلوكات شاذة... وعليه أن يعود إلى "جادة الصواب" طال الزمان به أم قصر...

غير أن حدة هذا العنف تزداد وقعا حينما يتعلق الأمر باختيارات قمع نمط الحياة والذوق والميولات الفكرية والفنية وكيفية تصور معنى الحياة والغاية من الوجود وكيفية تدبير الوقت والفضاء والعلاقة مع الأقارب والأصدقاء والجيران.. ففي كل هذا وغيره كثير، تبرز الاختيارات المجتمعية المنمطة والسائدة، حيث تتم استعادتها والدعوة لإعادة إنتاجها والسير على منوالها وكأنها بديهيات أو مسلمات أولية لا تحتاج نقاشا أو جدالا أو تغييرا أو انزياحا...

إن عقم العنف المجتمعي يكمن في إقصاء الطاقات الفردية وإعدام اختيارات الحياة المتعددة واللامتناهية. و الحال أن التعدد و الاختلاف هو البديهة الأولى لكل حياة و الشرط الأول و الأخير لميلاد المدينة.

مغرب أنصاف الحلول[8]

تخطئ الشعوب موعدها مع التاريخ حينما يتردد ساستها في اختيار الطريق الصحيح لتحقيق أهدافها وطموحاتها. ونتيجة للأخطاء وسوء التقدير، يدفع الثمن غاليا لسنين بل لأجيال كاملة، إلى أن تدور الدوائر ويبتسم حظ التاريخ مرة أخرى. وفي تاريخ مغربنا الحديث والمعاصر، تتعدد القرائن والحالات الدالة التي أخطأ فيها المغاربة (القادة) الموعد، واختاروا طرقا سهلة في الظاهر، لكنها كانت ولا زالت في بعض الحالات طرقا قاتلة عادت و تعود بعكس ما رسمت له.

عندما دخل المستعمر إلى المغرب، تأخرت المقاومة المسلحة المنظمة كثيرا إلى حين نفي محمد الخامس. وعوض استثمار حصيلة النضال واللعب الجيد بالأوراق، جرت "مفاوضات" الاستقلال التي أفرزت استقلالا ناقصا. لم تحسم مسألة الحدود مع الجزائر ولا سويت قضية الاستعمار الإسباني للجنوب. سارعت النخب آنذاك للتهليل

[8] كتب هذا النص قبل ما يسمى بالربيع العربي و التصويت على دستور يوليوز 2011.

لما سمي استقلالا، لكنه كان فخا لازلنا حاصلين في شباكه. قبل القادة المغاربة بحل ناقص ومستعجل، و لم يروا عاقبة صنيعهم هذا.

بعد موت محمد الخامس، منح الراحل الحسن الثاني دستورا على المقاس قتل السياسة والمشاركة في الحكم من المهد. وعلى الرغم من المراجعات والتعديلات إلى دستور 1996، ظلت معادلة الحكم هي هي، مع بعض الانفتاح العرفي الذي لا ينص عليه دستور المملكة. كان بالإمكان وضع دستور ملكية ديموقراطية حقيقية وتجنيب المغرب عقودا من الاحتقان وهدر الطاقات. وإلى اليوم، كان ذلك الحل الناقص ورما خبيثا يقتل جسد السياسة المغربية. و لم يعد أحد يشكك أو ينكر ضرورة دستور يحدد بدقة اختصاصات ومجالات تدخل المؤسسات. إنها المطالبة بإعادة "ضمس الكارطة المضموصة" منذ بداية الستينيات من القرن المنصرم

في بداية السبعينيات، ارتكبت حاشية الملك الراحل أخطاء قاتلة في ملف استكمال استرجاع الأراضي المستعمرة. استغلت المخابرات الجزائرية الأمر لتأسيس جبهة وهمية و زرع شوكة في خاصرة الوطن. وفي سنة 1981، كان المغرب يخوض حربا ضروسا ضد أعداء وحدته الترابية. كان المغاربة موحدين ومتفقين على كلمة

رجل واحد في الموضوع. لكن عندما اقترح وقبل الحسن الثاني الاستفتاء على الصحراء، أصاب القضية داء مزمن بفعل تدخل الأمم المتحدة وسوء نية الأعداء. تمت "جرجرة" القضية لسنوات، وتبين أن الحل الناقص نزل بردا وسلاما على الجزائر والبوليساريو اللذان كسبا الوقت واكتسبا شرعية الدفاع عن قضية مفبركة. ما يضير المغاربة لو ظلوا متشبثين بموقفهم المبدئي: الصحراء مغربية والصحراويون مغاربة؟. سنوات بعد ذلك، يقدم مقترح الحكم الذاتي: حل مغربي داخلي قابل للتنفيذ. لكن الأعداء ما يزالون متشبثين باستفتاء سريالي غير قابل للتنفيذ حتى في الخيال العلمي.

في سنة 1998، قرر الراحل الحسن الثاني إشراك المعارضة السياسية البرلمانية في الحكومة، لكنه لم يقرر إشراكهم في الحكم. مرت الأيام، وها هو حقلنا السياسي يعاني من موت إكلينيكي نتيجة انغلاقه شبه الكامل، واكتفاء مكوناته الحزبية بلعب دور "الكومبارس". كان حلا ناقصا محدود النتائج. كان ربحه قصير المدى (تسهيل انتقال الملك)، لكن الخسارة فادحة ويكتوي المغرب بنارها إلى اليوم. ذلك أن الحديث المتكرر عن مذكرات الإصلاحات الدستورية يتصور أن الصياغة اللغوية كافية لتحقيق المراد.

لقد تحققت التعديلات الدستورية حينما كان للمغرب نسق سياسي حي و دينامي حركه القصر و أحزاب المعارضة آنذاك. لم تكن التعديلات (1992 و 1996) شيكا على بياض، وإنما ترجمة لموازين القوى داخل النسق و للرغبة في تهيئ انتقال الحكم. كانت أحزاب المعارضة "محزمة" بإعلامها المؤثر و نقاباتها القوية و رجالها المومنين بعدالة مطالب التغيير...أما اليوم، كيف يعقل أن تطرح الإصلاحات في واقع تؤثثه أحزاب ضعيفة (يومن اغلب رجالها بالمناصب و الرضاعة الدائمة من "البزولة") و مؤسسة ملكية قوية و متمكنة داخليا و خارجيا؟.هل يريدون أن يقتسم الملك السلطة مع الأشباح أو الكومبارس؟ .

لا بد من تحقيق شروط "فرض" الإصلاح، بدل التلويح به في الصالونات و على صفحات الجرائد. لا بد من الفعل السياسي المؤثر و المنتج لتلك الإصلاحات قبل تدبيج و نشر المذكرات. تسبق العربة الحصان. و "زايدون" سنة 2009 ليست هي 1998 أو 1999. "من لم يحضر وقت السفر، لن تقبل منه أية شكاية". هذه جملة بليغة مطبوعة في أوراق تذاكر الحافلات."مشا الكار" بالدارجة المدرجة.

اللعبة السوسيولوجية الجديدة بالمغرب

أو لماذا يكره المغاربة التغيير الجذري

تعتبر التحليلات السوسيوسياسية أن ثنائية دولة/جلاد ومجتمع/ضحية تظل و من بعيد الثنائية الأهم في قراءة تضاريس علاقات السلطة في أي بلد.. تعتبر هذه التحليلات أن الدولة هي دوما من تستحوذ و تراقب و تعاقب... فيما يظل الآخرون، كل الآخرين، في موقع "الضحايا" الذين يقضون حياتهم في تلقي الضربات و العمل ما أمكن على الإفلات بالجلد و تأمين الحد الأدنى من الوجود.. هذا هو أقصى ما تقوله السوسيولوجيا السياسية حول علاقات السلطة في عصرنا.. لكن اللعبة هي أعقد مما نتصور..

افتراضي أننا لم نعد أمام افتراس عمودي أحادي تنفذه الدولة في "حق" ضحايا بلا حماية.. لقد كانت هذه اللعبة سارية قبل حدوث تحول أنطولوجي ضخم جدا في بنية الوجود: اختراق قانون التوحش المعمم لكامل الوجود الاجتماعي..

لنقرأ أولا هذه الفقرة المكثفة للمفكر و المربي المغربي الجيد محمد سبيلا: "من أكبر التحولات التي يمكن أن نلاحظها بالعين المجردة في الشارع والمتجر و العائلة و المدرسة الابتدائية هي زحف علاقات العنف على قطاعات كانت تعتبر إلى عهد قريب فضاءات آمنة. يمكن تفسير العنف بقوة تغلغل العلاقات و القيم الرأسمالية التي هي بطبيعتها شرسة و متوحشة و تنبني على التنافسية التي تجعل الناس يتصارعون بعنف في سبيل العيش، و هذا يؤثر على قيمهم الأخلاقية مثل التضامن و التعاون التي أصبحت في طريقها إلى الاضمحلال إن لم تكن قد اضمحلت في حين يحل بدلا عنها الصراع الوحشي حول الحياة.. إن هذا التوحش وهذه الروح الأنانية المرتبطة بعودة الاستهلاك وبمظاهر التملك و التفاخر كانت موجودة في المجتمع القديم و لكنها كانت مضبوطة أخلاقيا".

إن القول بأن قانون التوحش هو الذي أصبح يحكمنا و يوجه تحركاتنا و برامجنا في الحياة، و بأننا، و كيفما كانت "مواقعنا" الاجتماعية و"أوضاعنا" المهنية و "أدوارنا" السياسية توحدنا – لأسباب تاريخية كثيرة لا

مجال لذكرها هنا- في تبني التاكتيكات التوحشية باعتبارها السبيل "الوحيد" لمواجهة عنف الحياة وحماية الذات و تأمينها، معناه أننا غيرنا جذريا من بنيتنا السوسيولوجية التقليدية.. إن إلقاء نظرة خاطفة على الممارسات السياسية والاجتماعية و الاقتصادية لأغلبيتنا تكشف عن لعبة سوسيولوجية جديدة: لقد أصبح الكل توحشيا، بدءا بصناع القرار الذين حسموا بشكل جذري في تبنيهم لعقيدة "راه الموارد و لهموز محدودة فهاذ لبلاد و خاصنا نزربو عليها قبل ما يهبط الريدو"، وصولا الى الكائنات السفلى (عاطلون، سماسرة صغار، عاهرات الهامش، بائعو السجائر بالتقسيط....) الذين فهموا بشكل "ذكي" بأن السبيل الوحيد لبقائهم على قيد الحياة وتأمين الحد الأدنى من الوجود أمام وحوش تضخمت بشكل غير مسبوق و التهمت تقريبا كل شيء في طريقها لا يكمن في "تضييع" الوقت في سب العالم أو التفكير في ثورة "غير محسوبة" و لكن في الانخراط/الاستغلال الحربائي للممكنات التي يفتحها قانون التوحش نفسه في ما يحمي الذات و يجلب المنفعة و يضمن ربما ولوج النادي الملكي "للمتمتعين" بالعالم، مرورا بالفئات "الوسطى" (أطباء، محامون، أساتذة،

قضاة...) الذين "أرغموا" على تبني قانون "هاك وارا"، و "بين ليا نبين ليك"، و "ميك عليا نميك عليك"، و "خليني نغمس معاك راك غاتوقف عليا من بعد" حتى يتفادوا خطر النزول الى الأسفل و مشاركة جيوش الجوعى و الضائعين جحيم "الأقدار الربانية"[9]..

اعتقادي العميق أننا نقترب كل يوم أكثر من الهاوية.. أنا لا أقصد أن الأوكسجين سيختفي أو أن الماء سيجف أو أن بحرا ضخما سوف يبتلع المغرب و يمحيه من الوجود.. لا.. أنا لا أقصد ذلك بتاتا.. فالأنساق الحيوية – كوكبيا/مغربيا– كانت و ستظل دائما قادرة على إعادة التوازن لذاتها مهما حصل لها.. أنا أقصد أمورا أخرى أخطر.. إن أكبر ما يهددنا هو أسلوبنا في

---

[9] إن أخطر ما يمكن أن يقع لمجتمع ما هو أن تصبح طبقته المتوسطة المفروض فيها – هذا على الأقل هو دورها التاريخي كما علمتنا الحالة الأوروبية النموذجية- الدفاع عن العدالة و التقدم و الديموقراطية كمداخل استراتيجية تضمن بقاء الكل الشرط الأول لبقائها هي ذاتها الى طبقة انتهازية تلهث وراء الموارد و الصفقات خارج أية ضوابط قانونية أو شرعية.. إن هذا للأسف هو حال الطبقة المتوسطة ببلادنا كما "تنشط" في المصحات و المدارس و المعاهد الخاصة و الشركات العقارية و مكاتب التوثيق و المحاماة و .. من المهم التذكير في الأخير بأن طبقتنا المتوسطة تبحث عن المال وتراكمه فعلا عند الفئات بلا حماية، وعيا منها بأن اللعب في منطقة الكبار يعلي نهايتها السياسية قبل الاقتصادية.. "لي حكر على شي فار ..."

العيش و في "التنظيم" الاجتماعي.. تبين التجربة اليومية أننا أصبحنا أعداء لبعضنا البعض.. لقد دخلنا – تحت تأثير مخدرات خطيرة و منها مخدر بل قاعدة " نعيش أنا وماشي شغلي فبنادم" التي هي أحسن ما تلقنه العائلات لأولادها– عصر حرب الكل على الكل.. و هو ما سينمي الاستراتيجيات الهمجية أكثر فأكثر، و معها "مشاعر" الأنانية و اللامبالاة و اللاثقة و الرغبة في سحق أي واحد يقف أمام تحقيق رغباتنا.. حتى لا أقول فانتازماتنا.

لقد تبنينا بالكامل هذه اللعبة – لعبة "التدافع" السوسيولوجي العنيف إن لم يكن المميت– لأن كل واحد فينا اشتم فيها منفذه الفردي للخروج من محرقة سوسيواقتصادية معممة متنامية.. يجب إذن الخروج من ثنائية المجتمع/الضحية و الدولة/الجلاد التي لا تصلح أو لم تعد صالحة لتفسير التعقيدات المستجدة في عمق البنية السوسيولوجية المغربية... إن نظرية المخزن المحتكر النهاب المعاقب صحيحة لكنها غير كافية لتفسير بعض المستجدات غير المسبوقة في كثير من مناحي حياتنا. صحيح أن اللوبيات/المافيات القابضة على المورد/القرار الاستراتيجي المغربي افترست مجمل ما يوجد فوق/تحت أرضنا

وهي الآن تحارب أي كان يريد أن يزاحمها على مائدة الافتراس العظيم، إلا أن هذا لايعني أن الآخرين (مغاربة الطبقات "الوسطى" و مغاربة الزبابل و التيرات و القوادس) قبلوا بأقدارهم وانطووا على جراحاتهم الغائرة، لا، لقد فهم "الضحايا" اللعبة و فهموا أكثر ما يفتحه قانون التوحش من ممكنات "جيدة" لتدبير الذات بل ورفعها الى مرتبة الذوات المستفيدة بل المستمتعة العظيمة.. في العمق، يكمن ما نسميه الاستثناء/الخصوصية المغربية في هذا، في تجذر التوحش و لكن أيضا في كون الكل يمارس تعتيما هائلا على توحشه .. و بالفعل من السهل أن نلاحظ كيف يسمي البعض التوحش كما يمارسه في حياته الاجتماعية و الاقتصادية و العائلية بل و حتى العاطفية ردا دفاعيا صغيرا على التوحش/العنف الأكبر للعالم، فيما يرى فيه البعض الأخر "جريا" وراء الكسب، أو "قفوزية" استثمارية، أو مساهمة في "الفعل التنموي" حتى..

هذا هو السبب العميق –فيما أفترض- لرفض المغاربة لأي تغيير جذري بالبلاد.. لقد لاحظنا جميعا كيف أن كثير من المغاربة و من مختلف "التيارات" و "الانتماءات" و "المواقع" السوسيولوجية و الفكرية عبروا و

بحماسة نادرة عن توجسهم من زلزال الربيع العربي.. و كل من كنت تستفسره عن دوافع هذا التوجس كان يبادرك بالحجة التاريخية الكبرى: "حنا مجتمع "موسخ"، "مهيمج"، "بزاف عليه الديموقراطية".. و زايدون، راه مازال مانضجنا باش نقدروا نواجهوا تعقيدات اللحظة الثورية ".. في الواقع، تخفي هذه الحجج أمورا أكبر و أخطر: إن التوجس من التغيير مصدره الأول فيما أعتقد أن الغالبية الساحقة للمغاربة "مدبرة على راسها" في النسق الحالي، النسق الذي يضمن للكل –كل واحد حسب "ذكائه" و "حذاقته" و "قفوزيته"– منافذ الإفلات بالجلد و تحقيق "التنمية الذاتية" بتعبير خبراء البرمجة العصبية اللغوية.. وهل يغير نسق مربح اقتصاديا و نفسيا و وجوديا إلا أحمق أو بليد أو خارب عشو؟؟..

في الواقع، إننا أمام حالة تخلف خطير ينهش العقل المغربي من الداخل و يجعله – و هذا هو الاستلاب بمعناه القوي– يرى في قانون التوحش/القتل المعمم (للأخر و إذن للذات) أداته في الإفلات و البقاء على قيد الحياة. هل من سبيل لوقف الوهم؟ لا أعتقد.. على الأقل في المدى القصير.. ويبقى

"الحل" فيما أتصور هو أن نعيش الوهم حتى نهايته.. فلربما لكي تتحسن الأمور، يجب أن نتركها تسوء أكثر **pour que les choses s'améliorent, il faut faire en sorte que les choses s'aggravent..**

في زمن الزلازل التاريخية الكبرى
I Robot
أو فن صناعة المرأة المغربية المفصولة عن العالم

شاهدت مؤخرا بمتعة حقيقية الفيلم الأمريكي الشهير I robot الذي يحكي قصة روبوهات صنعها الإنسان لأغراض نفعية (المساعدة في تدبير شؤون البيت مثلا) قبل أن يحدث عطب خطير في البرمجيات التي تتحكم فيها و تثور على صانعها و تنطلق للانتقام و إخضاعه هو ذاته لأجندها..

تذكرت هذا الفلم الجميل و أنا أمر منذ بضعة أيام في شارع السعادة بفاس.. فبينما كنت خارجا من محلبة حيث احتسيت كأس عصير ليمون بارد فإذا بي أرمق امرأة في الثلاثين من عمرها وهي تتوقف أربع مرات متتالية أمام محلات خياطة تقليدية متجاورة فيما بينها.. إن ما أثار انتباهي ليس الأم و لاتوقفاها و لا نظراها و لكن كيف كانت طفلتها ذات الأربع أو الخمس سنوات تقف بجانبها في لحظة تأملية عميقة في التكاشط و القفاطن و اللباسي المعروضة في واجهات المحلات..

تركت الأم و الطفلة و سرت بضعة أمتار في اتجاه شمال الحي قبل أن تتراءى لي لوحة اشهارية ضخمة تظهر فيها مغنية مغربية شابة بابتسامة عريضة و لباس مثير وعلامات السعادة و الرضا على الهاتف الذي تشهره بادية جدا على محياها.. في تلك اللحظة مرت ثلاثة مراهقات كن قد خرجن للتو من ثانويتهن و توقفن ثواني طويلة أمام اللوحة في مشهد يشبه الى حد كبير مشهد توقف طفلتنا أمام محلات القفاطن السابقة..

سرت نحو قلب الشارع حيث يعرض باعة متجولون منتوجات صينية رخيصة على رأسها الكيسان و الطباسل و الشرابل و الخواتم و العكر ديال خمسة دراهم... حول الباعة كانت تتجمهر نساء من مختلف الأعمار و معهن طفلات صغيرات منخرطات بهدوء لكن بثبات في تأمل صارم في المنتوجات فيما يشبه حصة لتعلم ما يجب الانتباه إليه و التركيز عليه و معرفة أنواعه بل و حفظه و تذكره لولوج عالم النساء بل و العالم في كليته لاحقا...

نزلت أمتار أخرى نحو ملتقى الطرق.. وهنا وقفت على مشهد مثير جدا: أربعة نساء واقفات في شكل دائرة متراصة وهن في حديث جدي جدا

حول حفلة فهمت من الثواني القليلة التي استرقت فيها السمع أنها تخص خطبة لفتاة إحداهن.. من غريب الصدف أنني التقطت هذه الجملة: "عرفتو تبارك الله على سيدي نبيل جاب للالا غيتة واحد الرشم باين ولد الناس و عارف الأصول مزيان، جاب واحد الشربيل فاسي مدردر بجوج حجيرات ديال الذهب لبيض و معاه بورطابل بيبض مئيدب بزاف" .. في تلك اللحظة كانت طفلات صغيرات يتحلقن حول أمهاتهن في محاولة حثيثة لمعرفة ما يدور، بل إن طفلة من الطفلات حاولت إثارة انتباه والدها نحو خاتم صغير كانت تلبسه تعبيرا منها عن حضورها و متابعتها و انتباهها و فهمها و استيعابها و قبولها المطلق و فرحتها التي لاتقارن بما يجري و يمتدح أمامها..

يعتبر النفسانيون أن الأطفال يلتقطون عشرات الأشياء خلال اليوم الواحد، لكنهم لايحتفظون أو على الأصح لايستدخلون إلا القليل منها، هي بالذات الأشياء التي تكون ممزوجة أو محمولة بشيء فيه رائحة الأم و كلام الأم و نظرات الأم و رضاها الكامل..

نزلت نحو أسفل الشارع أمتار أخرى أبحث عن بائع خردة واحد وسط عشرات الفراشة يكون قد قرر –ضد هذه الهيمنة الإرهابية العادية للشرابل و الصبابط و الصماطي و الفولارات و الخواتم le terrorisme normal des choses – أن يفرش كتبا مثلا.. لم أجد و لو واحدا.. أه !!عفوا !! لقد عثرت على فراش يعرض أكواما من الكتب، و حوله تتحلق نساء كثيرات جدا يبدو عليهن اهتمام خطير بما يعرض أمامهن.. أحسست بسعادة حقيقية.. اقتربت من البائع و من النساء، وجدت صعوبة كبرى لاختراق الصفوف لرؤية أكوام الكتب، و بعد مجهودات جبارة وجدت نفسي أمام كنز نادر: ركام من كتب الطبخ و الموضة و تقنيات "توجاد" العروسة.. في تلك اللحظة، وقع ما يشبه الاقتتال الأهلي على جوهرة نادرة: مجلة تظهر على غلافها شخصية نسائية مغربية شهيرة بلباس مزين بمجوهرات قاتلة و خلف هؤلاء النسوة – وهذا ليس سبقا فلسفيا- تقف طفلات يتمرن على فن اكتشاف/استدخال العالم كما هو معروض فوق أرصفة هذا الخواء المغربي المترامي..

لنضع أنفسنا قليلا في قلب دماغ هؤلاء الطفلات/النساء (اللواتي مررن حتما من سيرورة هي نفسها التي يخضعن لها طفلاقمن) و نحاول أن نرى ما يعتمل في عمق الخابية كما نقول.. في اعتقادي، لايجب أن نستهين بما يحدث في شوارعنا.. إذا كان هناك شيء يجب أن نفهمه من المشاهد "العادية" التي سردقما هو أن الفضاء "المديني" يقوم –الى جانب أنساق أخرى سأعود إليها لاحقا– بدور خطير جدا في هيكلة دماغ المرأة المغربية (و الرجل المغربي أيضا مما يستدعي مناقشة أخرى) بشكل يجعلها تعتقد أن العالم كما هو في طبيعته أو في بنيته "الأصلية" و "الكلية" و "النهائية" هو عالم الطباسل و الشرابل و العراسات و اللباسي.. إن الطفلات اللواتي يصاحبن أمهاقمن في "تسوقهن" سوف يفهمن بفعل تكرار نفس المشاهدات و نفس التعليقات و نفس الأحكام أن العالم هو الشربيل، و هو ما يجب تحضيره للعروسة، و هو الموضة، و هو الحديث "العميق" و الجاد و الصارم حول الحلوى ديال لعرس، و هو البرزة لي خصها تكون هاكا و ما شي هاكا، و هو الجسد النسائي "الناقص" دوما الذي يجب الاشتغال عليه حتى يكون في المستوى، وهو الحطرة

بهاذ اللباسي و ما شي بهاد اللباسي، و هو الكاطو ديال الخطوبة لي خصو يكون مترو على متر ونص.. وشيئا فشيئا، تجد الطفلة نفسها مسيجة داخل دائرة من الأصنام يصعب جدا الخروج عنها.. وشيئا فشيئا تبدأ في تعلم الانفصال عن أي شيء لايشبه أصنامها، و في "معاداة" كل من يعادي أو ينتقد أصنامها، و كل من يريد إثارة انتباهها الى وجود عالم أخر يثوي بالقرب تماما من عالمها حتى لا أقول في قلبه الذي هو العالم السياسي/التاريخي، عالم التعقيدات و الالتباسات و التفاعلات و التحولات اللانهائية و المفتوحة، التي تحكمها هي و أصنامها..

إن من نتائج هذه "التنشئة الاجتماعية" أن الشربيل و العكر و الكبة و الطرز و اللبسة تصبح – بفعل قوة و حدة تكرار عمليات استدخالها الى النفس/الجسد– أعضاء "بيولوجية" للطفلة، أعضاء لايمكن تصور الجسد بدونها، أعضاء تصبح لها مع الوقت الأولوية المطلقة على الأعضاء البيولوجية "الأولى" (ألا توجد بيننا نساء كثيرات جدا يفضلن حرق مبالغ هامة على ضبلون أو مضمة أو لبسة "نادرة" على القيام بتشخيصات طبية دقيقة لألام جسدية/نفسية

حقيقية؟؟).. يشبه الأمر الى حد كبير استراتيجيا الشركات الدولية لمنتجات التجميل.. فعندما تريد شركة تجميل مثلا بيع منتوج معين، فإنها تقوم بإيهام المرأة بحاجتها الحيوية إلى المنتوج المذكور، و إلا حدث تشويش خطير في مسار تحقق ذاتها و نفسيتها ك"امرأة". هذا بالضبط هو ما يحدث في شارع السعادة و غيره.. تحول هذه الاستراتيجيا جذريا من معنى الجسد البيولوجي، الذي يصبح بلا أي معنى ما لم يصاحبه و يحمله جسد أخر، هو الجسد مافوق البيولوجي، الذي يصبح مع الوقت أداة الطفلة/المرأة الأولى و الأخيرة في بناء العلاقة بالجسد البيولوجي و بالجماعة و بالوجود الاجتماعي كله..

إن أخطر ما في عمليات "التنشئة الاجتماعية" الموصوفة أعلاه أنها تصنع طفلة/امرأة تحقق "نشوتها" النفسية حتى لا أقول "الدينية" فقط بالاقتراب من شربيل و قطعة عكر و صباط كا يحمق.. إن من تحقق رعشاتها الكبرى في مثل هذا العالم يصعب عليها أن تحس بضرورة رفع الأعين و تغيير الوجهة نحو عالم أخر، نحو ما يجري خلف دوائر الشرابل و قاعات العراسات و بلاطوات الحلوى من زلازل تاريخية يتطلب فهمها و التموقع ازائها و ربما معالجتها

أدوات ليست هي أو على الأقل هي أكبر من الأدوات "الشرابلية" و "العكرية"..

نحن نعيش i robot مغربي كامل.. فطفلات/نساء شارع السعادة تشبهن كثيرا الروبوهات في الفلم الهوليودي العميق.. فهي برمجت بشكل كامل لتنفيذ أجندة/"نصيحة" من صنعها: مشهدة mise en scène الذات بعيدا عن القضايا و الأسئلة الملتهبة و الحارقة للمغرب و للعالم.. و لحد الساعة تبدو على أيروبوهاتنا النسائية كل ملامح الخضوع و الانضباط لصناعها.. تبدو فقط !!! فالبشر أكبر و أعقد من أن نسيجهم داخل برمجات نهائية.. وهو ما حصل مع الروبوهات/البشر في "أفلام" تونس و مصر و ليبيا و اليمن و سوريا و في مناطق أخرى آت دورها بلا أدنى شك..

أصوليات حداثية

يلاحظ المتتبع للمشهد السياسي المغربي و للتغطيات الإخبارية لبعض الأحداث الوطنية و الدولية بروز ما يمكن أن اسميه بالأصولية الحداثية. وهذا ما سأحاول مقاربته في المقولات و الأمثلة المتفرقة الحية الموالية. و حتى إن افتقدت حرارتها و آنيتها، فإنها تستحق أن نذكر بها و نتأملها و نقف عليها من جديد لكشف الأصوليات في ممارسات وسلوكيات "حداثية" سياسية وإعلامية. لعل الذكرى تنفع "الحداثيين

المجتمع الديموقراطي الحداثي

ارتفعت أصوات كثيرة للدفاع عن "المجتمع الديموقراطي الحداثي بتفكير أصولي وبمنطق تبسيطي ميتافيزيقي يفترض العذرية والاكتمال والنقاء الحداثي

إن أول ما أفرزته مقولة الحداثة هو نقد كل أصولية فكرية أو سياسية أو إثنية.. مقابل تتويج العقل سيدا والإنسان سائدا على نفسه بواسطة عقله أولا وأخيرا ومن ثمة، ضرورة النقد المستمر في أفق الحفاظ على حرية الإنسان واحترام عقله

لذا، لا يعقل أن تتم الدعوة إلى مجتمع ديموقراطي حداثي بتفكير تسلطي يروم فرض تصور واحد وفهم واحد لمعنى الديموقراطية والحداثة. فكيف تكون هناك ديمقراطية حداثية ومريدوها لا يعترفون إلا بأنفسهم؟ كيف تكون هناك ديموقراطية حداثية وأصحابها أصوليون في تفكيرهم، اختزاليون في منهجية عملهم، قصيرو النظر في تدبير علاقاتهم وخلافاتهم مع المحافظين السياسيين والدينيين؟ ذلك أن أصحاب هذه الدعوة كثيرا ما تغشى أبصارهم عن رؤية الأصوليات الكثيرة التي تحضر في كيفية تدبير شؤون الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.. وكثيرا ما يرضون بكراء أفواههم وأقلامهم للدفاع عن مصالح تسلطية سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا، وكثيرا ما يرددون شعارات جوفاء فيما يمارسون أقصى درجات الأصولية والتطرف الفكري والاجتماعي والاقتصادي... وكثيرا ما يتعبأون ضد الأصولية المعترف بها، فيما يغضون الطرف عن الأصوليات المرسمة و الرسمية والحاضرة بقوة في القيم السياسية والاجتماعية، وحتى الاقتصادية، حيث يتجاور الإقطاع والريع مع الشعوذة الحداثية التي لا ترى إلا ما تريد رؤيته، وتعمى أبصارها كليا عن نقد ركام الأصوليات المحافظة، وما أكثرها.

من ثمة، ينبغي على دعاة الحداثة والمجتمع الديموقراطي الحداثي تغيير رؤيتهم لأنفسهم ولعلاقاتهم ولمواقفهم ولطبيعة تفكيرهم وتفاعلهم مع الواقع... حتى يمارسوا حداثتهم بشكل تنويري منفتح، لا أصولي زئبقي يتقلب بتقلب الأحوال وتبدل الأسماء والمصالح والمخاوف.

صناعة الوهم

لا يتردد سدنة معبد العولمة في إنتاج أشد الأفكار تطرفا وعنصرية وإلباسها لباس المسابقة والتفوق من أجل إنجاح مشروعهم الكوني القاضي بصناعة الإنسان المطابق لمواصفاتهم والمستهلك لمنتوجاتهم والمتلهف لكي يحظى بشرف الانتفاع بخدماتهم الجليلة!

ذلك أن مسابقات "ستار أكاديمي" ونسخها المزيدة والمنقحة هنا وهناك على شاكلة "استوديو دوزيم" و"روح المقاولة" تقوم على آلية إقصائية متطرفة أساسها النزوع الواهم نحو الإنسان الكامل المتكامل المتفوق على منافسيه في"فصيلته" الفنية أو المهنية... كما تزرع في عقول وأفئدة الشباب وعموم المواطنين مقولة خبيثة مفادها أن

مشكلة وجودهم وتحسين ظروف حياتهم وتغيير مصيرهم هي مشكلة ذاتية ــ داخلية. فهم المسؤولون أولا وأخيرا عن وضعهم ولا علاقة للخارج بذلك. عليهم أن يجدوا ويكدوا لكي يتفوقوا ويبلغوا ما بلغه فلان أو علان، ولهم في نجوم الرياضة والفن مثال حي على ذلك.

هكذا، تقوم مسابقات بيع الوهم والضحك على من يشتريه بقتل لما هوسياسي رويدا رويدا، وتحويل العالم إلى فرجة عالمية كبيرة وعرس احتفالي ضخم يتبارز فيه ذكور القبيلة وحسناواتها للظفر بالتتويج المريح! وفي الوقت الذي يكون فيه العالم في حاجة ماسة لتعزيز ثقافة التشارك والتعاون والتساوي والانتماء إلى الهوية الأرضية، تعمد هذه الفيروسات التلفزيونية إلى زرع الحياة في أوهام التفوق والإقصاء والكمال والانتصار على الآخر... والقول بمبدأ أنا أو لا أحد، ومن بعدي الطوفان. و هذه أصولية أخرى تلبس لباس الانفتاح و "الترفيه" و المسابقة البريئة! .إن الموت القادم من العولمة يروم صناعة "إنسان" ميت أصلا. فالحياة الموعودة هي تلك التي يصنعها ويجملها كهنتها ويصرفونها في أوهام وردية زاهية على شاشات التلفزيون مباشرة!

إعصار لويزيانا ومجاعة النيجر

في البدء كان الماء.. ينهطل مطر غزير وتجري ريح عاتية تجتث الأشجار الباسقة من جذورها...

كان طوفانا مائيا وإعصارا استعدت له أم الدنيا وأبوها أياما قبل أن تحين ساعته.

في البدء كان التراب... صحراء قاحلة وشمس حارقة وجفاف أباد الحرث ولم يمهل النسل. أجسام لا هي بالحية ولا هي بالميتة، تشكو الطوى والعطش والمرض وضيق ذات اليد. تناقلت القنوات الصور ــ الفضيحة الإنسانية. حضرت بعض ما تسميه اللغة الإعلامية بالمساعدات ومعها الكاميرات وأبواق الدعاية... وبين التفاصيل الصغيرة قيل، وبدون استحياء: إن 3 ملايين من شعب النيجر مهددون بالموت!!

بعد مرور الإعصار، قدرت الخسائر بـــ 100 مليار دولار، ورصدت المليارات الأولى.. تعالت الأصوات منددة بالتأخر في الإسعاف والإنقاذ، وبدأت

تتكشف عورة الولايات الأمريكية من خلال أرقام فقراءها الذين لم يلبوا نداء بوش بالهرب لأنهم لا يملكون سيارة ولا مال لهم لاستئجار غرفة في فندق...!!

بعد بث الصور، بدأت الدولارات تظهر بدورها كصورة تلفزية غرضها إظهار وجودها أكثر من الكشف عن سبب نزولها... 3 ملايين إنسان على شفا حفرة من الموت... ولا تعبئة ولا هم يحزنون! إنه رقم تافه ومغمور في صحراء إفريقيا لا يستحق عناءا ولا تعذيب الضمير... إن كان هناك ضمير فعلا.

بين الإعصار والمجاعة، تكون الضحية واحدة. إنسان إفريقي أو ذو أصول إفريقية. أمريكيو لويزيانا الفقراء من جذور إفريقية وأفارقة النيجر مسلمون بسطاء توحدوا مع طبيعتهم الجافة حتى صارت أبدانهم أغصان أشجار جافة تقاوم قساوة الشمس وحرارة التراب.

أليس الكفر بالإنسان وبأحقيته في الحياة أفظع من الكفر بالله ؟! .أليست هذه أصولية (إن لم تكن عنصرية) يمارسها الساسة ومن سار في ركبهم من الإعلاميين؟.

أفارقة سبتة ومليلية

أصبح تدفق ما تسميه وسائل الإعلام بالمهاجرين السريين أو غير الشرعيين المنحدرين من دول إفريقيا جنوب الصحراء على المغرب في أفق الانتقال إلى إسبانيا مادة إعلامية مثيرة تعكس الكثير من القوالب الجاهزة والمضمرات التي تبخس حق إفريقيا والأفارقة السود.

فبعد أن كان الأوروبيون يستبيحون أدغال إفريقيا من دون أن يعلو صوت الشرع أو القانون، وبعد أن كان الأوروبيون يهاجرون ويستوطنون وينهبون ويستعبدون ... هاهم اليوم يصفون كمشة من أحفاد من نهبوهم واستعبدوهم بالمهاجرين غير الشرعيين.. ويشيدون اتجاها سلبيا للرأي العام المحلي إزاءهم، حتى تخالهم كائنات خطيرة ستقضي على الراحة الأوروبية المزعومة.

هكذا، أن يأتي المئات من الأفارقة لطرق أبواب سبتة ومليلية قصد إيجاد فرصة عمل في إسبانيا أو أوروبا عامة... فكأنما جاءت الأشباح لتنغص عليهم حياتهم، فأولئك ليسوا سوى بضعة سود، لا أحد يستقصي حياتهم وأوطانهم ومحكياتهم وآلامهم ومشاقهم... لا أحد يطرح السؤال عن ذلك الظلم التاريخي والسياسي الذي جعلهم

يقطعون مئات الكيلومترات وفي ظروف قد لا تليق حتى بالحيوانات المتوحشة... من أجل الوصول إلى بوابة أوروبا، حينها لن يخرجوا الإسبان من بلادهم، وإنما يريدون فقط عملا كريما، بل إنهم يرضون بالعمل المهين والإقطاعي حتى يتمكنوا من إرسال بعض النقود إلى ذويهم...

إن أفارقة سبتة ومليلية هم عنوان كتاب تاريخ إفريقيا. إنهم عنوان واقع البؤس والفقر وانسداد كل الآفاق. إنهم عنوان الهجرة الكبرى التي ستأتي لاحقا إن بقيت إفريقيا قارة مهجورة لحالها ولظلم حكامها ونفاق مستعمريها السابقين والحاليين. إنهم وصمة عار في جبين أوروبا الاستعمارية التي تمارس أصوليتها " الحداثية" "بالشرع" و "القانون".

الفقراء والحيوانات الأليفة

يبدو أن بعض التقارير الإخبارية صارت أقرب إلى قلة الحياء الإعلامي والإنساني منها إلى المهنية وتقريب القراء أو المستمعين أو المشاهدين من آخر المستجدات، حتى و إن أدرجت في خانة المنوعات أو الأخبار " الطريفة"، لكنها في الحقيقة متطرفة.

ففي زمن غدا فيه الحديث عن الفقر والفقراء مادة إعلامية تتردد صباح مساء، وفي الوقت الذي تصدر فيه المنظمات الدولية أو الإقليمية أو المحلية تقارير صادمة عن نسب استفحال الفقر والحاجة في مختلف ربوع المعمورة، وفي الوقت الذي يعرف فيه القريب والبعيد و الأمي والمتعلم، أن ملايين البشر خاصة في إفريقيا السوداء مهددون بالمجاعة، بل و"يعيشون" في نعيمها الأسود وجهنمها الأرضية منذ مدة، في ظل كل هذا وغيره، هناك من تسول له نفسه من الإعلاميين بإنجاز تقارير عن أشخاص يصرفون مبالغ ضخمة من أجل تربية وصحة ونعيم حيواناتهم الأليفة، خاصة الكلاب والقطط، من دون أن يتوقف الصحافيون عند الخبر و يكشفون أبعاده وتداعياته..!

ولعمري إن عملية حسابية بسيطة عن المبلغ الذي يصرف لمأكل وشرب القطط والكلاب.. وما يصرف لنفس الغرض لأطفال وشيوخ ونساء الفقراء رسميا في العالم قد يصيب بالسكتة الدماغية قبل القلبية. وإذا أضفنا إلى ما سبق ما يصرف من أجل التبغ والمخدرات والعطور ولوازم التجميل وغيرها من الكماليات التي حولتها الآلة الإعلامية إلى ضروريات، فإننا نخلص جازمين أننا نحيا في عالم انتهت فيه الأخلاق

والقيم الإنسانية، بل هو عالم التمييز والفصل غير المعلن بين الذين يملكون قوت يوم المئات والآلاف، والذين لا يملكون حتى الثياب الرثة التي يرتدون!

ما الذي يدفع الإنسان إلى العناية بكلبه أو قطته ولا يتولى العناية بأخيه الإنسان الذي يوجد على شفا حفرة من الموت؟ كيف ترضى البشرية بإنشاء مدارس خاصة لتربية الكلاب، فيما ملايين الأطفال لا و لم ولن تطأ أقدامهم المدرسة؟.إنها أقصى درجات التطرف و أشد الأصوليات فتكا و عدوانا. إنها بذور قاتلة تهيئ ببطء لمستقبل قاتم لبني البشر. و سيأتي اليوم الذي يقف فيه المؤرخون على مساهمة مثل هذه الأحداث و الأخبار في حروب تدق طبولها منذ مطلع الألفية الثالثة.

تحولات الكرة، تحولات التاريخ:

هل تنجح كرة القدم في تأجيل الثورة بالمغرب؟

الشعب الذي ينسى مآسيه السابقة محكوم عليه بأن يعيدها في حاضره و مستقبله.. (ادغار موران)

عندما اجتاحت الأمطار الطوفانية منطقة الغرب سنة 2009 مخلفة خسائر فادحة زادت من تأزيم الوضعية المهزوزة أصلا لسكان منطقة غنية جدا بموارد فلاحية تتحكم فيها لوبيات لا تترك لسكان المنطقة إلا الفتات في مفارقة عجيبة من مغرب "الاستقلال"، قلت عندما هجمت المياه و السيول على البشر و الحيوان و النبات قدم الإعلام العمومي الأمور مثلما يقدم أية كوارث تقع بسريلانكا أو البانكلاديش أو الشيلي.. لا يهمني هنا "خبث" التلفزة المغربية – فهي في هذا تنفذ أوامر صناع الضبط الإيديولوجي، وهؤلاء، كما نعلم، يتلقون رواتبهم لتنفيذ مهام واحدة و وحيدة، هي إخفاء عنف و بشاعة الواقع

في قلب البرودة اللانهائية "للخبر"- بقدر ما يهمني "تفاعل" المغاربة أنفسهم مع الحدث.. أتذكر جيدا أن ردود "المواطنين" المغاربة على قلتها لم تخرج عن إطار التعاليق اللامبالية كما لو أن منطقة الغرب لا تنتمي لهذه البلاد.. وفي نفس الأسبوع تقريبا، و عندما انهزم منتخب كرة القدم أمام نظيره الغابوني ذات سبت "مأساوي"، فإن التعاليق كما حكا لي أخي كانت من الانفعالية ما جعلني أشم فيها رائحة آلية من تلك الآليات التي "يوظفها" البشر لتفريغ احتقانات سياسية و اجتماعية غابرة كما سأوضح.. لنستمع إليه : "صحيح أنني من عشاق كرة القدم، ومن عشاق مباريات النخبة الوطنية، لكنني لم أفهم ذلك الطوفان اللغوي الذي اجتاح المقاهي و الحافلات و الإدارات و المعامل.. كانت حدة "النقاشات" تعطي الانطباع كما لو أن المغاربة يعبرون عن تذمرهم من كوارثنا الاقتصادية و الاجتماعية المتفاقمة، أو أنهم يندددون بخطأ سياسي فضيع من ذلك النوع الذي يعمق معاناتنا العامة.. إنها فعلا مهزلة، مهزلة أمة تنخرط بهستيريا نادرة في مسائل لا تستحق كل هذا".. قبل أن يضيف : "لقد لاحظت شيئا لم أفهمه تلك الأيام، وهو أن أشخاصا لم تكن هناك أية معرفة

مسبقة بينهم، دخلوا في نقاشات "أخوية" و "صوفية" نادرا ما تحصل في تاريخ أمة ما.. إن هذا "الالتحام" الغائب في لحظات الهزائم الاجتماعية و الحضارية، تحول إلى شيء مطلوب و بقوة بعد حصول الهزيمة أمام الغابون"..

من جهتي أتساءل: أي شعب هذا يتفرج ببرودة قصوى على كوارث منطقة الغرب و المغرب– الفيضانات، الغلاء الفاحش، الفساد المترامي..– و "يتعصب" بشكل هستيري للقاء كروي؟ أي شعب هذا يتفادى مواجهة أزماته و اختناقاته فيما لا يتردد في شحن أعتى "الأسلحة" لمواجهة "صدمة" هزيمة كروية؟ ماهذا الشعب الذي يحترف التعاليق الرياضية فيما يتبرأ من الذات و المدينة و الدولة و القارة و العالم و الحياة و المعنى..؟ ما هذا الشعب الذي يلتحم فيما بينه في لحظات "الأزمات" الكروية، و يتفرق و يحقد على بعضه البعض في لحظات الأزمات الحياتية؟

أريد أن أقترح بعض المداخل التي قد تسعفنا في فهم هذه التحولات الانتروبولوجية المقلقة للغاية.. أولها أن شعبا فشل في أحلامه التاريخية الكبرى – إتمام الاستقلال، تحقيق الديمقراطية و الكرامة، وضع تعليم عمومي جيد..–

حول فعاليته التاريخية (أو الليبيدية كما يقول النفسانيون) نحو البحث عن انتصارات كروية صغرى في محاولة استيهامية لتضميد الجرح النرجسي الناتج عن الفشل التاريخي الكبير.. بعبارة أخرى، وبعد العجز عن الانتصار في ملعب الحياة، و بعد العجز عن تحقيق الذات داخل المجالات "الواقعية"، لم يتبق أمام المغاربة سوى اللهث وراء الانتصارات الاستيهامية، من مثل الانتصارات الكروية السهلة، الفورية، المضمونة و غير القابلة للنفاذ.. "طبيعي" إذن لمن فشل في إطفاء نيران الواقع أن يتجه نحو منافذ الإغاثة الاستيهامية !!!!.. أليس من حق العاجز و المهزوم و المنسحب من الواقع تجريب تحقيق الذات في ما تبقى من وهم، وهم الكرة؟

تساهم الدولة بقوة في تسريع انتقال المغاربة من دائرة العيش في الواقع إلى دائرة "العيش" داخل الاستيهام.. هاكم هذا المثال عن بعض تقنيات الدولة في إنجاح هذا الانتقال.. منذ مدة طويلة و الكل يقر بفشل السياسات التعليمية بالبلاد.. فلقد صدرت تقارير كثيرة تفضح تخلف النظام التعليمي المغربي على كل المستويات، و أخرها التقارير التي تقر بفشل التعلمات الأساسية و ما

أدراك ما التعلمات الأساسية.. الغريب أن السيد مزيان بلفقيه صاحب "الميثاق الوطني" الذي قاد المغرب إلى احتلال مراتب العبث في التقارير الدولية هو نفسه من كلف بصياغة إصلاحات جديدة (صيغت لاحقا في شكل خطط "استعجالية" كثفت داخلها كل أمراض التهور و الاستسهال التي قادت إلى الاحتقان الذي جاء المخطط ل"حله").. و في الوقت الذي لم تكلف فيه الدولة نفسها عناء إرسال ولو "استفسار" تافه واحد لشخص قاد البلاد نحو كارثة تعليمية ستؤدي العائلات المغربية ثمنها من مستقبل أبنائها، في هذا الوقت بالذات، تقود نفس الدولة تغييرات "جذرية" في هياكل الكرة بعد "الكارثة" الغابونية إياها.. هذه هي فلسفة السادة في تدبير البلاد: التغييرات الفورية و "الجذرية" عندما يتعلق الأمر بالفشل في قطاعات اللعب و الزيف و الوهم- و هذا الإسراع في قلب الطاولة كما نقول يعطي الانطباع بخطورة الأمور و "واقعيتها" مما يرفع بشكل قوي من أهميتها-، ثم التلكؤ و اللاعقاب عندما يتعلق الأمر بالفشل في قطاعات الواقع (التعليم و غيره)، و التلكؤ، كما نعلم،

يعطي الانطباع، المناقض تماما، بتفاهة الأمور و تفاهة و لاجدوى، أيضا، أية محاولة للنظر في شأنها أو استنزاف الجهد في سبيل معالجتها..

ماذا عن الآن؟ في زمن "الكارثة الغابونية الثانية"، كارثة الخروج "المذل" لمنتخب الكرة من الدور الأول؟.. هل سيعيد المغاربة إنتاج نفس التخلف الذي صدر عنهم في موقعة الغابون الأولى؟ هل ستقود جامعة الفهري نفس التاكتيكات الحربائية التنويمية؟ هل ستلجأ إلى التغييرات "الراديكالية" الملغومة الشهيرة؟ أم أن الدولة الوصية - دعونا نحلم بعض الشيء- ستفهم أخيرا أن أفضل وسائل "ضبط" الشعب هي "إغراقه" بالديموقراطية و العدالة و التنوير، مداخلنا الاستراتيجية للفرحة الوطنية الكبرى؟؟..

100% فساد..

ملاحظات سريعة حول السرطان الأول بالمغرب

إذا ما كنت عزيزي القارئ ممن يتصفحون يوميا أهم الجرائد الوطنية، فسوف تجد نفسك حتما وجها لوجه أمام تسونامي من أخبار عن قضايا فساد مالي و تجاري و عقاري و ضريبي.. سأشير أولا إلى بعض من القضايا التي تفجرت في الفترة القصيرة الأخيرة (التي تغطي تقريبا المائة يوم الأولى لحكومة بنكيران).. سأحاول ثانيا أن أقترح فرضيات من أجل فهمها الفهم الذي يسمح بمعالجتها معالجة مركبة و صارمة [10].

التلفزيون المغربي يبث عشر مباريات من كأس افريقيا مقابل 10 ملايين دولار.. كل مباراة منقولة تكلف ما يقارب 800 مليون سنتيم.. مقالع تشتغل في غفلة من الجميع و ملايير الدراهم تضيع سنوات... البحث في

[10] عندما نقرأ مثل هذه المعطيات نفهم الى أية درجة هي خطيرة و خطيرة جدا تصريحات بنكيران الأخيرة حول العفو عن المفسدين و النهاية و مخربي الدولة التي أطلقها في برنامج أحمد منصور..

ملف المقالع على مدى البلد أشبه بالاقتراب من عش الدبابير.. مليون دولار لجينيفر لوبيز في افتتاح موروكومول.. طائرة خاصة أقلت المغنية إلى المغرب ب 300 مليون سنتيم.. النجمة الأمريكية تقضي ليلتها بجناح بتكلفة 36 ألف درهم بأحد أفخر فنادق الدار البيضاء.. الفاسي الفهري يتحرك بسيارة (بنتلي) ب 175 مليونا بنيويورك.. 5 شركات كبرى تحتكر 80 بالمائة من سوق الإشهار في المغرب.. إدارة مهرجان مراكش للفلم الدولي تخصص طائرة خاصة لنقل النجم الهندي شاروخان ذهابا و إيابا.. النجم الهندي لم يمكث في مراكش إلا 24 ساعة.. مهرجان مراكش يكلف 8 مليار سنتيم.. المبالغ صرفت على مأكولات و مشروبات وخرجات المدعوين.. وزير المالية مزوار يهدد بكشف ملفات "فساد" بعد اتهامه بأخذ مبلغ 250 مليون كمكافأة عن نهاية الخدمة.. الهيأة الوطنية لحماية المال العام تطرح أمام القضاء 53 ملفا في مواجهة كريم غلاب.. 5 مليارات حجم سرقات الكهرباء بمراكش و المتورطون أثرياء و أرباب فنادق و مطاعم فاخرة.. المغرب يصنف ضمن دائرة الدول التي أصبحت فيها الرشوة حالة مزمنة.. بلخياط يبذر 10 مليار سنتيم على مركز

رياضي.. وزير الرياضة أوزين يطلب فتح تحقيق قضائي في ملفات الفساد التي فجرها المفتش العام لوزارته.. مافيا البناء العشوائي تغتني بمآسي الباحثين عن "قبر الحياة".. أحياء عشوائية كبرى بعاصمة السياحة.. الفرقة الوطنية تحقق في صرف أكثر من 5 مليار بمراكش من طرف نائب العمدة.. الغنى الفاحش و الفقر الفاحش على سرير واحد بمراكش.. تحركات لتمرير صفقة غامضة قبل تنصيب حكومة بنكيران.. صراع حول بقعة أرضية ب 4 ملايير سنتيم.. وجهات نافذة في قفص الاتهام.. البقعة مساحتها 8000 متر و توجد بالقرب من المركز التجاري ميغامول بالرباط.. 8000 أسرة تطالب ليديك بمليار و نصف مليار درهم.. السكان يتهمون ليديك باستخلاص واجب الانخراط المقدر ب 1800 درهم مرتين، الأولى من عند المقاول و الثانية من عندهم.. مافيا الرمال تهدد أمن و سلامة سكان رأس الماء بالناظور.. موروكومول خامس مركز تجاري من نوعه في العالم في بلد 8 و نصف مليون من سكانه يعيشون تحت خط الفقر.. غليان شعبي و إنزال مكثف بأحواز القنيطرة.. الأحداث تلت مظاهرة طالبت بالنزاهة في تدبير أراضي السلاليين و إعادة النظر

في التعويض عن البقعة التي خصصت للمنطقة الصناعية و إقالة نواب الجماعة.. عمدة طنجة يعزو مشاكل المجلس إلى لوبيات الفساد.. 500 مليار سنتيم تكلفة حكومة بنكيران خلال الخمس السنوات التي هي فترة ولايتها.. إدانة متهمين بالاستيلاء على 374 هكتارا من الأراضي السلالية بالشمال في انتظار الكشف عن الأسماء الكبيرة المتورطة في هذا الملف.. والي الرباط يطلب من مجلس المدينة تفويت قطعة أرضية يساوي المتر بها 15 ألف درهم ب 300 درهم.. "الهاكا" تتستر على فضيحة فساد مالي داخل إدارتها أو حين تتحول خلوة إلى سهرة.. الريع يلتهم أكثر من 20 مليار درهم سنويا.. نسخة جديدة من البناء العشوائي تجتاح المدن المغربية.. ملاك أراضي ورجال سلطة متورطون في الملف..76 صندوقا أسودا في المغرب حجمها 52 مليار درهم ولا تخضع لأي رقابة.. لأول مرة الميداوي يبعث قضاته إلى وزارة المالية للبحث عن الصناديق السوداء.. في تقرير يستعرض "السيبة العمرانية" و يتهم عمدة المدينة بسرقة المدينة: برلماني يحذر من كارثة عمرانية بفاس.. بنعلو استولى على فيلات في ملكية المكتب الوطني للمطارات.. الطلحاوي مدير الشؤون العامة السابق

يكشف فضيحة عشرات الهكتارات بالبيضاء استولى عليها بنعلو و شركاؤه.. المعطلون يحرقون أنفسهم.. بيد الله يحيل ملف الفساد بمكتب التسويق و التصدير على القضاء.. المطالبة بافتحاص مالية البرنامج الاستعجالي و مؤسسة الأعمال الاجتماعية للتعليم.. مستشارون بمجلس البيضاء: نطالب بوثائق صرف أكثر من 327 مليار سنتيم برسم ميزانية 2010.. راتب كيريتس يساوي 160 سنة من السميك.. ضبط اختلاسات و تبذير المال العام من قبل مديرين و موظفين سابقين بكوماناف .. موظف سابق بكوماناف يكشف خروقات خطيرة.. وجه رسالة إلى الوكيل العام تتحدث عن اختلاس 86 مليار و تبذير المال العام.. مهنيو وكالات الأسفار يطالبون بفتح تحقيق في ملفات الفساد.. رحلة الغابون تكلف جامعة الفاسي الفهري 14 مليار سنتيم.. بنك المغرب يكتشف تقنيات جديدة لتهريب العملة نحو الخارج.. التحقيق في مكتب التسويق و التصدير يورط قادة سياسيين.. المقاوم الاسماعيلي الساسي في تصريحات صحفية: "أخطر الخونة و المتعاونين مع الاستعمار هم من احتلوا المراكز الحساسة بالدولة مع بداية الاستقلال".. المخرج فريطس

يفتح ملف أسرار الملايير التي ذهبت إلى جيوب اللوبي السينمائي .. قرارات خارج القانون قبل حكومة بنكيران و ملايير صرفت في ساعات.. نقابيون يكشفون لوزير الصحة عن فضائح القطاع: مديرون قدموا تصريحات مزورة للاستفادة من تعويضات السكن و تبذير الملايير في مركز اصطياف بمراكش.. عاملون بقناة ميدي 1 يوجهون رسالة إلى الخلفي يكشفون فيها عن أوجه الفساد و تبذير المال العام بالقناة.. ملف الاختلاسات بولاية طنجة يعود للواجهة.. تسونامي البناء العشوائي بالجديدة: هدر أراضي فلاحية و إفساد مقومات طبيعية و تشويه مجالي بالإقليم.. ويكيلكس يكشف فضائح وزارة الأوقاف: تعيينات بالمصاهرة و خلافات بشأن تجهيز 29 ألف مسجد بالشاشات و حضيرة السيارات بالوزارة.. تهريب 25 مليار دولار من المغرب إلى الخارج.. اختفاء باشا سبت جزولة بالتزامن مع زيارة لقضاة المجلس الأعلى للحسابات.. البحث في تبديد أموال عمومية بسلا.. اتهامات بتبذير 134 (مائة و أربعة و ثلاثون) مليار بأكاديمية الدار البيضاء..أعضاء بالمجلس الإداري نبهوا إلى تفويت فيلات و سكنيات باهظة القيمة إلى متقاعدين.. ليديك تسطو

على 54 مليار.. و السبب المعلن من طرفها أن مجلس المدينة "نسي استرجاعها" و هي مما يدخل في إطار حقوقه على الشركة.. حوادث الشغل الوهمية أو مافيا الاغتناء غير المشروع.. ملف "السياش" يصل إلى الرميد و عليوة يهدد بالكشف عن ملفات ضخمة.. الخلفي: الفساد يكلف المغرب 1600 مليار سنتيم سنويا.. بنعلو يفشل في بيع ضيعته ذات 300 هكتار أياما قبل لاعتقاله.. بنعلو يطلب في الضيعة 200000 (مائتا ألف) درهم للهكتار قبل أن ينزل الثمن إلى 100000 (مائة لأف) درهم للهكتار.. اعتداء على مسؤولة بالمكتب الوطني للمطارات تعاونت مع الفرقة الوطنية في قضية بنعلو إلى أن أغمي عليها! فاعل سياسي: حزبيون مشهورون متورطون في ملف التسويق و التصدير.. سعيد تغماوي: الدعارة هي المنتوج الثاني بالمغرب بعد الليمون.. مستجدات ملف المكتب الوطني للمطارات: اختلالات ب 640 مليار سنتيم.. كتلة الأجور في بلدية أسفي تبلغ 11 مليار سنتيم نصفها لموظفين أشباح.. لائحة المستفيدين من رخص الصيد بأعالي البحار تضم جنرالات كبار بمؤسسة الجيش.. الرخصة الواحدة تدر على صاحبها الملايير من

السنتيمات كل سنة.. كريمات لأسماء متهمين بقتل بنبركة .. اتهام ولعلو بالتواطؤ مع متهربين من أداء 51 مليار.. رئيس مقاطعة حسان: لولا الوالي لكان الكثير من مستشاري الرباط في السجن.. وزير التعليم العالي يقرر متابعة 3 عمداء كليات.. الوزير يتوعد بمتابعة مافيات "الزرود و الحفلات و الصفقات الوهمية".. المغرب في المرتبة الخامسة عالميا في تجارة الجنس عبر الانترنت.. اتصالات المغرب تحقق ربحا بقيمة 8000 مليار سنتيم سنة 2011 و صفها إطار بالمؤسسة ب "الوديان من الدراهم" ينقل أغلبها نحو فرنسا... فضائح مهولة بمكتب التسويق و التصدير.. تصفية عدد من الشركات التابعة للمكتب.. التخلي عن استرجاع مستحقات المكتب و تعد بملايير الدراهم.. تفويت عدد من العقارات، داخل المغرب و خارجه، بطرق تشوبها كثير من نقاط الظل و الغموض.. تسبيقات بمئات الملايين من الدراهم استفاد منها فلاحون كبار ينتمون لحزب سياسي كبير دون الحصول على ضمانات.. تفويت آلاف الهكتارات من الأراضي الفلاحية لرجل أعمال و سياسي مشهور في منطقة الجنوب.. بوليف: منحنا "تيجيفي" لفرنسا لجبر خاطرها..

استقلاليون يهددون بفتح تدبير الحسين الوردي لكلية الطب منذ عشر سنوات إذا لم يوقف نبشه في ملفات وزارة الصحة أيام الاستقلالية بادو.. ملفات فساد تضع أسماء نافذة في قفص الاتهام بوزارة النقل: تفويت مساكن و سيارات ومسؤولون كبار استفادوا من قروض كانت موجهة لموظفين صغار.. إمبراطورية صندوق الإيداع و التدبير: توظف مدخرات المغاربة و تجني الملايير و تقدم حساباتها للملك و بعيدا عن الحكومة و البرلمان.. عبد المومني: هناك ملفات فساد في التعاضدية العامة للإدارة العمومية ومزوار سبب مشاكلنا.. سأكشف عن اختلالات أخرى بعد صدور الحكم النهائي في قضية اختلاس 17 مليار.. الفرقة الوطنية تحقق في اختلاسات كوماناف.. مراجعة صفقة اللقاح تنقذ 15 مليار من الضياع.. وأخيرا و ليس أخرا: 20 مغربيا ينتحرون حرقا السنة الفارطة احتجاجا على الفساد..

ليسمح لي القارئ اللحظة بإدلاء بعض الملاحظات السريعة حول مشاهد فلم الرعب المغربي هذا (علما بأن 10 بالمائة فقط من قضايا الفساد المالي أو غيره يصل إلى الجرائد و القضاء)..

أولا، من الواضح أن الفساد تغول إلى درجة أنه أصبح هو الدولة بل أكبر من الدولة ذاتها.. وهذا ربما هو "الاستثناء المغربي" الشهير الذي يتحدث عنه البعض..

ثانيا، إن قضية واحدة من هذه القضايا لو كتب و تفجرت في دولة مثل انجلترا لهزتها هزا ومن جميع الأركان.. إن أخطر ما في القضايا السابقة أننا أصبحنا نقرأها كما لو أن الأمر يتعلق بأخبار عن هواية القنص بجبال الأنديز أو بأخرى عن صناعة الحلي التقليدية بقرية غابرة.. إن أخطر ما في القضايا السالفة (التي لاتشكل، أكرر، سوى نقطة تافهة من محيط اقتصادي/سياسي لاحدود لعفونته) أنها تمر كما لو أن الأمر يتعلق بأشياء عادية في حين أنها ليست كذلك بالمرة.. وهذا بالضبط هو أبشع ما يمكن أن يقع لشعب ما: أن يطبع علاقته بالفساد و يبدأ في التعايش معه كما تتعايش الصدور مع غاز الأوكسيجين !!

ثالثا، لايشكل تجذر نهب المال العام سوى الثمرة التي نحن بصدد حصدها عن خيارات كارثية اتخذتها الدولة في فترة الستينات و السبعينات.. ففي تلك الأيام التي ترفض أن تغادرنا، قام الحسن الثاني – في سياق حربه على المعارضة القوية آنذاك– بمنح البلاد هدية لنخبة من الأعيان الغارقين في اليمينية و الرجعية و الفساد، سعيا منه وراء

استقطاب/بناء جيش من الموالين انقضوا على المبادرة فوضعوا أنفسهم رهن الإشارة مقابل تركهم يوسعون من مجالات سطوهم.. ومع الوقت، توسعت اللعبة لتلتهم الكل بما في ذلك خالقها الأصلي.. وهذا في العمق هو ما يمنعنا من أي تقدم دال في زمن الربيع العربي الهادر..

رابعا، يمكن تفسير قوة استفحال نهب المال العام بالمغرب بعوامل أخرى.. يمكن القول بأن الانقلابات السبعينية خلقت جوا رهيبا من انعدام الأمن جعل الكثيرين يلجئون إلى فعل أي شيء يمكنهم من حماية أنفسهم من أية تقلبات غير محسوبة ..

خامسا، كان و لازال لغياب دولة الرعاية الاجتماعية دور حاسم في دفع البشر (أيا كانت أوضاعهم الاجتماعية) إلى اقتراف أي شيء قادر على الحماية من "دواير الزمان".. كما كان و لازال النزوع الحثيث للدولة نحو تدمير الثقة في مؤسساتها – من خلال مثلا خلق يأس عام ومميت في مؤسسة العدالة– حاسما جدا في دفع المغاربة إلى البحث و بأية وسيلة عن "العدالة الفردية".. إن الإحساس الذي يتجذر يوما بعد يوم بغياب سياسات اجتماعية حامية حقيقية يحفز بقوة على البحث عن أية أشكال (حتى و إن كانت من ذلك النوع الذي يخرب الدولة و المجتمع) لتأمين الذات و العائلة..

سادسا، يمكن إرجاع ظاهرة نهب المال العام أيضا إلى عوامل نفسية عائلية عميقة.. العامل الأول هو الحرمان العاطفي.. فعدم إشباع الحاجات العاطفية الأساسية للطفل قد يكون وراء تشكيل ما يسميه النفسانيون الاستعداد النفسي للنهب.. فالطفل المحروم عاطفيا يكون الأقرب إلى البحث عن أية وسيلة (ومنها المراكمة "المفتوحة" لضمانات مادية صلبة لانهائية و غير قابلة للزوال) تكون قادرة على أن تعيده إلى ساحة الوجود التي طرد منها.. أما العامل الثاني فهو الإفراط العاطفي.. فاستجابة الأباء الفورية و الدائمة و المبالغ فيها وفي بعض الأحيان الاستباقية لمطالب ابنهم غالبا ما تكون هي المسؤولة عن تضخم ذات الطفل، وهو التضخم الذي يقوده لأن يربط بل ويرهن – وهذه معادلة نفسية خطيرة– وجوده و سعادته بالإشباع اللامشروط لنزواته و اندفاعاته المتجددة المستدخلة بطبيعة الحال كحقوق/مكتسبات أبدية..

هذه ملاحظات سريعة جدا عن كارثة سوف تتنامى بقوة نادرة إذا لم نعالجها معالجة جذرية، مؤلمة وغير مسبوقة..

نانسي و هيفاء و ميليسا و حجازي..

الدعارة بديلا عن الحداثة

" غنوا و ارقصوا و استهلكوا و لاتفكروا"

الرأسمالي العالمي المتوحش للقطيع البشري المنهوب و المغيب

عندما رمقت نانسي عجرم في سهرة رأس السنة ترقص على خشبة أحد استوديوهات قناة دوزيم على إيقاعات اصطناعية موجهة ل"تسخين" جمهور بدا واضحا أن "صحاب الوقت" نجحوا تماما في تحويله إلى قطيع يرعى و لايفكر، تبادرت إلى ذهني الأمراض الفادحة الثلاثة للمغرب و"للأمة" العربية: الاستبداد، و الفساد، و التخلف..

يعني الاستبداد تحكم حفنة من البشر – وباسم شرعيات كثيرة بعضها دموي/"بعثي" كما في سوريا، و بعضها دموي/زنقوي كما كان في ليبيا، و بعضها دموي/"سني" كما في السعودية، و بعضها دموي/"حداثي" كما سار في تونس، و بعضها دموي/فهلوي كما عرف في مصر، و بعضها

دموي/ثوري/انقلابي (على الأمة) كما هو ممارس في الجزائر- في إنتاج وتسويق القرار السياسي و الاقتصادي الاستراتيجي.. و يعني الفساد استحواذ نفس الحفنة على موارد الدولة حتى و لو تطلب الأمر إرسال كل الفئات الأخرى نحو جهنم الأرض الشاسعة.. أما التخلف فهو "استدخال" الفئات المسحوقة سياسيا و المنهوبة اقتصاديا لوضعها باعتباره قدرا مقدرا مما يتوجب التطبيع معه بل و ربما الاستفادة من منافعه طالما كان الأمر ممكنا..

لنبدأ من البداية.. إن من نتائج التدمير السياسي/الاقتصادي/الذهني للأفراد نزوعهم نحو البحث عن أي شيء يعطيهم الإحساس باستمرارهم على قيد الحياة.. فعندما يقمع المرء سياسيا و اقتصاديا، و عندما يمنع من الاحتجاج المدني على هذا القمع، فإنه يلجأ - حتى يحس ببعض الحياة داخله- إلى الاحتماء بأي شيء لازال بالإمكان الثقة فيه و التعويل و المراهنة عليه و الذي يشكله في الحالة المغربية و العربية المحتقنة الجسد الراقص كرابط أنطولوجي فوري و صلب و مضمون و "دافئ" مع العالم.. إن ما يفسر النجاح الباهر للأغنية العربية الراقصة المروجة بقوة على قنوات كثيرة هو أنها تقدم لمستهلكها

اقتراحا انطولوجيا لايقاوم كما يقال بإمكانية العيش بل و السعادة الكلية حتى بل و بسبب انتفاء الشروط السياسية و الاقتصادية و المدنية الطبيعية للعيش و السعادة.. أكرر: إن تعلق المشاهد العربي بهيفاء و ميليسا و أخريات كثيرات ليس تعلقا بجسد بورنوغرافي بقدر ما هو تعلق – و هذا أهم فيما أتصور- بأخر شيء قادر على منح الإحساس بالوجود، و بالوجود "الباذخ" بعد تدمير كل الأنساق الحيوية الأخرى.. هذه هي الاستراتيجيا الفلسفية لأنظمة الغبار العربي: دفعها للأغنية العربية "البورنوغرافية" باعتبارها بديلا/سلاحا أنتروبولوجيا فعالا للإفلات من إرهاب العالم، الذي هو إرهابها[11]..

[11] تشكل كرة القدم الأداة القوية الأخرى في استراتيجيا استبدال الوجود الحي بالوجود الاستيهامي.. و يكفي النظر جهة مقاهينا للتأكد من درجة تغول هذه الاستراتيجيا.. بشكل عام، لقد نجحت الدولة في تحويل الفضاء العام (مقاهي، ساحات، دور "ثقافة") من فضاء مفترض للاجتماع من أجل النقاش و الاحتجاج و الثورة، الى فضاء حقيقي للاجتماع من أجل عيش اللذة الاستيهامية كلذة فائقة.. و هذا أحد أكبر تحولاتنا الوجودية..

وراء نانسي وهيفاء و ميليسا إذن يوجد استراتيجيون هدفهم الأول منح الأغلبيات المنهوبة و المسحوقة وجودا يعوض[12] عن الوجود الذي خرب ربما الى غير رجعة.. لقد فهمت الأنظمة العربية – و على رأسها الأنظمة البترومافيوزية راعية عمليات الانتحار/الحياة داخل الجسد العجرمي الهيفائي الميليسي- أن أولوية أولويات المرحلة هي توفير قطع غيار/بيوت/أجساد دافئة- هي في الحقيقة بيوت/أجساد بلاستيكية سرعان ما تذوب بمجرد سقوط أشعة شمس الحقيقة عليها كما يقول المفكر المغربي عبد الالاه حبيبي في سياق أخر- لكل أولائك الذين اختطفت منهم بيوتهم/حاضناتهم/حقوقهم الاقتصادية و السياسية و المدنية الطبيعية الأولى.. يجب أن نسجل أن الأنظمة العربية نجحت بشكل باهر في عملها.. وهذا دليل كبير على علو كعبها في فبركة و تسويق أوهام لا بد و ستنقلب عليها.. ولنا في النموذج التونسي و المصري و الليبي و السوري خير مثال[13]..

[12]يشكل الترويج القوي للا"دين" السني-اللاهوتي-الغيبي) أداة أخرى في سياق دفع "الأمة" للعمل "الديني" الحثيث للظفر بجنة أخروية دائمة بعيدا عن "تضييع" الوقت في الركض وراء أحلام أرضية "غير مضمونة"..

[13] أضفت هذه الجملة بعد انسلال شرارة الثورة إلى مجمل أنظمة الغبار العربي..
من الأمور التي أثبتتها الثورات العربية التي ليست سوى في بدايتها أن لعبة تصريف السيروم/الوجود الاصطناعي (الاستيهامي) استنفذت صلاحيتها، وهو ما يؤكد الصحة

الربيع العربي لم يقع

عندما استفسر أحد الصحفيين الثعلب هنري كسنجير عن سبب إطالة الولايات المتحدة للحرب في منطقة الهند الصينية حتى 1976 مع تيقنها من هزيمتها العسكرية منذ 1970 جاء جوابه كالتالي: "لقد قررنا أن نضيف أربع أو خمس سنوات إلى الحرب لأهداف استراتيجية محضة.. لقد خسرنا المعركة و لكننا ربحنا الحرب، و ما ربحناه هو أننا تمكنا من إيقاف الزحف الشيوعي في المنطقة بعدما أرسلنا ما يكفي من التحذيرات الواضحة و المباشرة (ألاف الأطنان من القنابل التي لم تكن لها أية ضرورة عسكرية) لكل من كان يفكر في اللعب بذيله ضدنا بالمنطقة..".. هكذا كانت الولايات المتحدة ولازالت: تلعب على الأجندات المعقدة البعيدة المدى التي لا تفهم إلا بعد سنوات طويلة على إطلاقها..

التاريخية/الالاهية لنظرية الزبد المحكوم بالتحول إلى كل الأشياء القادرة على إطلاق أشد الروائح قذارة..

و إذا كانت إرادة التحكم في المستقبل هي الثابت الأول و الأكبر في التفكير الاستراتيجي الأمريكي فيجب أن نفهم أن الولايات المتحدة لم تحتفظ أبدا بنفس آليات تصريف هذه الإرادة.. فمن خلال قراءة سريعة للتاريخ الأمريكي منذ الأربعينيات حتى الآن، يتبين أن بلد العم سام كان يجدد آليات تحكمه كل عشرين/ثلاثين سنة تقريبا.. باختصار شديد، وظفت أمريكا أربعة أوراق أساسية خلال الثمانين سنة الأخيرة: ورقة التخويف من العدو الشيوعي (النقابي/الحزبي) الداخلي لتبرير إطلاق سياسة التحكم المطلق في رقاب الأمريكيين (فترة ادغار هوفر و جون ماكارتي)، ورقة التخويف الشامل من الاتحاد السوفييتي بعد استنفاذ ورقة العدو الداخلي لتمرير/تبرير فكرة الخروج الإمبراطوري نحو العالم، ورقة الإرهاب- تلك اللعبة الخطيرة التي وظفتها أمريكا بذكاء نادر لتوسيع وعائاتها الإمبراطورية، ثم أخيرا ورقة ما أسميه الاحتواء الديموقراطي كما تختبره في الحالة العربية الراهنة سعيا وراء إلقاء القبض على الديناميات/السيولات الثورية و إعادة توجيهها فيما يخدم مصالحها..

لقد وقع تحول كبير من بوش إلى أوباما. فإذا كان الأول قد دفع بورقة الإرهاب إلى أقصاها لتبرير الاستمرار في الزحف الانجيلي/الإمبراطوري على العالم (من المهم أن نعلم أن المحافظين الجدد الذي حكموا الولايات المتحدة الأمريكية في العشرية الأولى للقرن هم الاسم غير المشحون دينيا لجماعة ال "كويكرز" التي تومن بقوة بأن الله اختارها وحدها ل "قيادة/إنقاذ" العالم من "الشيطان")، فإن أوباما سار بخطى أكثر ميكيافيلية في اتجاه تطبيق نظرية "أهدأ" و أقل إثارة للانتباه هي نظرية الاحتواء الديمقراطي- على الأقل في منطقة الربيع العربي.. لقد فهم الأمريكيون بسرعة كبرى أنهم لايمكنهم صد المد الإسلامي، و لكنهم بإمكانهم تماما احتواؤه في اتجاه إخضاعه– و "برضا" أصحابه أنفسهم كما سنرى– للأجندات الأمريكية.. و الألية الكبرى التي وظفتها/توظفها الولايات المتحدة كما أرى هي منحها الإسلاميين الإحساس بوجود أخطار حقيقية تحيط بهم، سواء من جهة فلول النظام المطاح به، أو من جهة الأطراف الثورية الحاقدة على كل الذين لايريدون — ومنهم الإسلاميون– القطع الجذري مع "محور الشر" الأول في المنطقة، المحور

السعودي/الإسرائيلي/الأمريكي، ثم تقدم ذاتها باعتبارها الورقة الأضمن و الأربح للمساعدة على شل التهديدات القائمة.. بعبارة أخرى، تقوم نظرية الاحتواء الديموقراطي على ما يلي: إيهام الإسلاميين بأن الأطياف الأخرى تريد دمهم، و بأن الولايات المتحدة تفضل مصرا يحكمها إسلاميون براغماتيون يميزون جيدا بين الممكن و المستحيل في اللعبة الدولية (يفهم الإسلاميون جيدا بأنه لايمكن المس بإسرائيل، و لا بالبترول، و لا باتفاقات منظمة التجارة العالمية) على كيانات هلامية لايمكن معرفة إلى أي مدى يمكن أن تدفع بثوريتها/جذريتها في حالة وصولها إلى السلطة!!. وما إن يبتلع الإسلاميون الطعم، حتى يفهموا أنهم أمام لحظة تاريخية تستوجب التخلي النهائي عن أي تحالف مع قوى ثورية لايؤمن جانبها، و الاصطفاف مع عرض أمريكي يضمن شروط ممارسة مريحة للسلطة..

إن ما يدعم هذه القراءة انتروبولوجيا بل و حتى "دينيا" هو أن الجماعات الإسلامية بما فيها "الراديكالية" لم تكن لها أبدا أية مشكلة مع المتخيل الانتروبولوجي/الديني/الرأسمالي/الأمريكي المهيمن على الساحة الدولية،

متخيل الاستهلاك/التجارة/الفرجة. نعم، لامشكلة للجماعات الإسلامية مع تعميم الاستهلاك الذي تعتبره من صميم "العقيدة الإسلامية"، و لا مع التجارة بما في ذلك مع "العدو" (التي توجد لها تبريرات قوية من داخل النص القرآني و الحديث و السنة)، و لا مع الفرجة/الاحتفالية (التي مراسها النبي نفسه) شريطة أن تكون "إسلامية".. لا أعرف تيارا إسلاميا واحدا له مشكل مع أسس النظام الرأسمالي، لا أعرف إسلاميا واحدا يتخذ مثلا من الفكر البيئي المناهض الجذري لنظام الإنتاج/الاستهلاك المدمر كما نعلم لموارد و توازنات كوكبنا أفقا "دينيا" صارما له، لا أعرف إسلاميا واحدا يتخذ مسافة مع التحرير الشامل للتجارة باعتباره "بذخا"، "ترفا شيطانيا" يتوجب الحد منه، لا أعرف إسلاميا واحدا ينتقد فكرة الفرجة، باعتبارها حطب اقتصاد الاستباحة و تسليع الأجساد و الأرواح..

في هذه السياقات يمكن أن نفهم المسرحية الخطيرة الأخيرة التي تمثلت في دفع سليمان/شفيق إلى الترشح للرئاسيات المصرية.. لقد كان الهدف من وراء إخراج هذا الزوج من قمامة التاريخ و وضعه أمام شاشات التلفزات هدفا

تاكتيكيا ظرفيا لاغير، وهو خلق ردة فعل حاقدة عامة تدفع و تسرع من الالتفاف على مرشح الإخوان باعتباره المنقذ "الجذري" من شبح استخباراتي/فهلوي فلولي و تحقق بالتالي – بشكل "فني" كما نقول"– سقوط مصر بين أيادي أطراف تلتقي انتروبولوجيا/دينيا مع مصالح/عقائد اللوبيات الاستهلاكية/التسليعية/الفرجوية الأمريكية.. هذه هي نظرية الاحتواء الديموقراطي: دفع البشر وهم في "كامل وعيهم" كي يحولوا الثورة كما حلموا بها عن جذريتها، و الارتماء في أحضان من سوف يرسكلون جيدا "النظام العام للأشياء" (الذي أصبح في كليته – أكرر– نظاما استهلاكيا/تجاريا/فرجويا) وفق أشكال إسلامية، اخوانية كانت أم سلفية..

لننصت الآن إلى شومسكي وهو يفكك بحماسه المعروف هذه اللعبة الأمريكية كما حاولت أن أقدمها هنا. يقول شومسكي في رد على سؤال حول الدور الأمريكي في منطقة الربيع العربي: "حسنا، في مصر وتونس والدول المشابهة، توجد خطة للعبة، يتم تطبيقها نمطيا ولا تحتاج عبقرية لفهمها. فإذا كان لديك ديكتاتور مفضل يواجه مشاكل (مع شعبه)، فقف بجانبه حتى

آخر مدى. وعندما يستحيل الإستمرار في دعمه، قم بإرساله إلى مكان ما، ثم قم بإصدار تصريحات رنانة عن حبك للديمقراطية، وحاول الإبقاء على النظام القديم، ربما بأسماء جديدة، وقد حدث هذا مرارا وتكرارا : حدث مع سيموزا في نيكاراجوا ومع الشاه في إيران ومع ماركوس في الفيليبين و ديفيلييه في هايتي ومع زعيم كرويا الجنوبية و موبوتو في الكونغو وتشاوسيسكو مفضل الغرب في رومانيا وسوهارتو في أندونسيا .. إنه أمر نمطي تماما، وهذا بعينه ما يحدث في مصر" ..

في العمق، لن يكون الإخوان سوى الاسم "الإسلامي" للعقيدة الإستراتيجية المباركية، العقيدة القائمة كما سبق على الحفاظ على أمن إسرائيل و تأمين تدفق البترول و تيسير انسلال الرأسمال الدولي المتوحش إلى موارد مصر و المنطقة.. بطبيعة الحال، سوف تتخذ العقيدة المباركية داخل اللغة الإسلامية أسماء "لاهوتية" حتى تموه على حقيقتها.. ووحدها الأيام ستكشف كما كان بإمكان الراحل بودريار أن يقول بأننا أمام نفس التاريخ وهو يولد ذاته في نقائضه/أشباهه، و بأن الربيع العربي لم يقع.. على الأقل لحد الآن..

الإعلام المغربي ضد الإنسان المغربي

الفصام الثقافي في التلفزيونات العربية

منذ صدمة الحداثة الغربية التي أصابت العالم العربي الإسلامي نهاية القرن19، عرفت المنظومات الثقافية والاجتماعية العامة أو الخاصة بكل بلد على حدة خلخلات كبيرة ما تزال تبحث إلى اليوم عن توازنها واستقرارها. ومن مظاهر "الاضطرابات" حدوث ما يسمى بالفصام الثقافي الذي انعكس في الإعلام ووسائط الاتصال ليصبح فصاما ثقافيا تلفزيونيا بارزا نظرا لهيمنة الوسيط التلفزيوني في مجتمعاتنا التي تحبل بالأمية والجهل.

وقد تطرق الباحث المصري محمد حسام الدين إسماعيل للموضوع في علاقته بالأغاني المصورة (الفيديو كليب) في كتابه الهام "الصورة والجسد: دراسات نقدية في الإعلام المعاصر " (منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2008). يؤكد محمد إسماعيل أن مفهوم "الفصام الثقافي" الذي وصفه جاك لاكان يحتوي على مؤشرات ومرموزات معزولة ومفتتة، وهي تفشل في أن يكون لها رابط

متسلسل. لذا فلا يعرف الفصامي هوية شخصية لأن شعورنا نحن البشر بالهوية يعتمد على وجود "الأنا" المستمرة عبر الزمن" (ص 159). ويستخلص الباحث من هذا التعريف وجود سمتين للفصام الثقافي: "انقطاع الذات المؤقت وغيبة الهوية الشخصية". ويستدل الباحث بمجموعة من الأغاني العربية التي تدلل على ظاهرة "الفصام الثقافي" مثل أغنية "امرأة عربية" للمغني اللبناني يوري مرقدي حيث تتناقض نصوص كلمات الأغنية مع النصوص البصرية للأغنية. فالمطرب يصف حبه لامرأة عربية بينما يرتدي ملابس نجوم "الراب" الغربيين.. كما أنه يلمس جسدها، الأمر الذي يتحدى ـــ حسب الباحث ـــ "الكود" الأخلاقي العربي قبل مرحلة التعولم الراهن" (ص 159-160).

إذا ما أردت توسيع "أجرأة" هذا المفهوم ليشمل برامج ومواد تلفزيونية عربية أخرى، يمكن التأكيد على أننا نكون أمام بئر مليئة بالماء الزلال المنفصم حتى الضحك المبكي. فإذا أخذنا نشرات الأخبار الرسمية الحكومية، نكون أمام خطاب منفصم لاهوية موحدة له ولا انسجام وتكامل في مكوناته. هكذا، يتم في البداية التحليق بالمشاهد في عالم المثل الذي تجسده تغطية أنشطة الحاكم: ملك، رئيس، أمير.. وجميع حركاته وسكناته بالتفصيل الممل. هنا نكون أمام خطاب سلطوي يقول بالعلاقة

الأبوية الآمرة الناهية بين الحاكم ومشاهديه. بعد ذلك، تنتقل إلى عالم آخر يقول بالديموقراطية وحرية التعبير وسيادة الشعب واحترام المواثيق الدولية ونقد المسارات التعسفية والاجتياح الاسرائيلي... وغيرها من العناوين التي تؤثث بها النشرات العربية.

إننا أمام فصام ثقافي إخباري يعكس الفصام السياسي العربي الذي يدعي الديموقراطية قولا، ويمارس السلطوية فعلا: "ديموقراطية" الأخبار الدولية وسلطوية الأخبار الوطنية.

برمجة منفصمة

وعلى مستوى البرمجة التلفزيونية في القنوات العربية العامة، يلاحظ المأزق الذي يدفع إلى تأكيد الفصام الثقافي. ذلك أن صعوبة التوفيق وعدم السقوط في التناقض أو المفارقة على مستوى الهوية والانتماء الثقافي يصل أحيانا حد الفصام المزين بالألوان والإخراج التلفزيوني الجذاب. ولنا في قناة MBC ومشتقاتها خير مثال على ذلك. ذلك أن القواعد الثقافية المحددة للهوية العربية في شقها السعودي الوهابي تحصر في تغطية الأنشطة الرسمية والإخبار بالفتاوى والإجابة على أسئلة المشاهدين الدينية. بالمقابل، تحفل البرامج والفقرات الأخرى بما لذ وطاب من انفتاح "هوياتي" وسلوكي ولباسي

حيث المذيعات الجميلات (بما يتناقض طولا وعرضا مع تعاليم حراس الوهابية الأشاوس). أما على صعيد المسلسلات المكسيكية والتركية والمصرية، فحدث ولا حرج. لقد أصبحت MBC قبلة نساء ورجال المغرب والشرق المتيمات و المتيمين بمهند وتيم ونور ومن في حكمهم جميعا.

إنها أقصى درجات الفصام الثقافي التلفزيوني الذي يتم تبريره بالبث من دبي (بعد لندن) وبكون المجموعة المالكة للقناة مجموعة "خاصة" وليست حكومية. وهذه أكذوبة أخرى تريد حجب الوظيفة الإيديولوجية للقناة ومشتقاتها والخدمات الجليلة التي تقدمها لطويلي العمر من أشقائنا في السعودية والخليج عموما.

وإذا ما انتقلنا إلى القنوات الموضوعاتية المتخصصة، فثمة فصام آخر تتعدد مظاهره وأبعاده. في "الجزيرة" نسمع صباح مساء مذيعيها يرددون عبارات الديموقراطية وحقوق الإنسان واحترام إرادة الشعوب العربية والكرامة الإنسانية... فيما تبث القناة من إمارة ما تزال تعمل بنظام الكفيل. لقد صعقت عندما سمعت محمد كريشان يقول إنه هو شخصيا أجير مكفول من طرف مشغل قطري (في نهاية حلقة خاصة من برنامج

"ما وراء الخبر" حول إلغاء البحرين لنظام الكفيل). تصوروا نجوم الجزيرة أجراء تحت رحمة كفيل قطري: أينك يا ديموقراطية ويا كرامة وشعارات محاربة إسرائيل...؟ !

أما على صعيد القنوات الغنائية الموزعة بين قطبي روتانا وميلودي. فإن حال الفيديو كليبات العربية يثير الشفقة في غالبيتها العظمى. وهذا ما تطرق له محمد اسماعيل كما أشرت أعلاه. وهنا أورد فقرة مركزة وعميقة في الصفحة 133-134 كتب الباحث: "تحفل الأغاني المصورة بالإشارات للعلاقات الفكرية والإيديولوجية المتمركزة حول أجساد الفتيات، فالبعض من هذه الأغاني المصورة تظهر اتجاهات تغريبية واضحة يختلط فيها الشبان بالفتيات على الشواطئ وفي الحفلات، بينما تحتفظ بعض الأغاني المصورة الأخرى بالصورة التقليدية للمرأة العربية الباحثة عن حبيب أو "زوج" في الأغلب بشكل مستكين وممتثل يحفظ أدوار النوع في المجتمع العربي الإسلامي التقليدي".

هذه باختصار شديد ومختزل بعض مظاهر الفصام الثقافي في تلفزيوناتنا العربية، وهي دعوة إلى الكتاب والنقاد للانتباه أكثر للموضوع/ المفهوم وأجرأته في أمثلة ونماذج أخرى لا يتسع لها المقام أو مجهود شخص واحد أو شخصين.

لالة لعروسة، استوديو دوزيم

أو استراتجيا التحكم في البشر الفائض عن الحاجة

موضوع هذه الورقة هو محاولة فهم الوظيفة الجذرية للتلفزة المغربية في فترة يقال أنها دقيقة و تاريخية، فترة ترسيخ "تلفزة التنوير و التقدم" كما يحلو لرؤساء الإعلام العمومي أن يرددوا في جهل تام بالتدميرات الفعلية التي تحدثها كثير من موادهم الإعلامية "الناجحة" في قلب مضامين و قيم التقدم و الحداثة و التنوير..

قبل ذلك، أريد أن أقول بأن كل فهم لظاهرة إعلامية "شهيرة " كلالة لعروسة أو استوديو دوزيم يقدمها كظاهرة تتحرك خارج الخلفيات الإيديولوجية و السياسية التي تحركها يؤدي إلى تشويش/تشويه تام لها. يجب مقاربة كل ظاهرة سمعية/بصرية بحسبانها تحمل خلسة رهانات إيديولوجية و سياسية معقدة و تقوم، في الوقت ذاته، بالتمويه على منطقها الإيديولوجي و السياسي تماما كما

يفعل اللاوعي عندما يخرج إلى سطح الوعي في أشكال مقلوبة و مراوغة تخفي غابته الخلفية الكثيفة و الخطيرة..

أنا من الذين يعتقدون بأن الوظيفة الجذرية لبرامج الفرجة الجماهيرية الواسعة كلالة لعروسة واستوديو دوزيم هي لفنا بفرجة تكون لها القدرة على منع رؤية العالم كما هو، أي كلعبة لانهاية لها من السياسات الاستغلالية و التحكمية كما سنرى..

إن رسالة سادة التلفزة واضحة جدا للمغاربة: "اعرضوا عن تقلبات المغرب و العالم و عيشوا الفرح بالمباشر مع نجوم أعراسكم و أغانيكم". إنها دعوة لاستبدال تعقيدات الواقع بالنشوة الفورية للحفلات، و عنف اليومي باللذة "العرسية" السهلة، و البحث الشاق و الطويل النفس عن السعادة بالتمتع المباشر بمواد مضمونة مترامية.. و لقد نجح هؤلاء السادة بشكل باهر في المهمة.. ألم تنتج هذه السياسة في النهاية إنسانا مغربيا يرى العالم من منظار المسابقات الغنائية و طقوس الأعراس و الاستعراضات و الحفلات الفولكلورية، إنسانا،

بعبارة أخرى، لا سياسيا، لا إيديولوجيا، لاتاريخيا، يعيش خارج عصرنا، خارج تحولاته العنيفة غير المسبوقة؟

أعتقد أن لالة لعروسة و استوديو دوزيم و البرامج الشبيهة ليستا سوى آليتين جديدتين ضمن سياسة قديمة: سياسة التحكم في النسق عبر التحكم في 90% ممن يشكلون النسق. ولكن من هم هؤلاء 90% ؟. إنهم ليسوا بالتأكيد أولائك الذين يسرقون موارد البر و البحر، ولامن يهربون أموالنا نحو البنوك السويسرية و البريطانية، ولا من يضعون أولادهم داخل مدارس الخمسة ألاف درهم في الشهر، و لا من يسافرون إلى باريس أو نيويورك لشراء أخر أنواع الملابس الداخلية.. إن 90 % هم كل أولائك الذين وجدوا أنفسهم خارج دائرة صناعة القرار الاقتصادي و السياسي، وخارج دائرة تدبير "مواردنا"، وخارج دائرة الفهم . باختصار، إنهم فائض لفضه النسق و يحاول الآن استعادته لأهداف إستراتيجية كما سنرى.

لقد فهم صناع الإخفاق الاجتماعي أن ليس من مصلحتهم أن يظل 90% من المغاربة خارج النسق، أي، ببساطة، خارج المراقبة و الضبط

و..الاستثمار.. لقد فهموا أن استعادة هذه الأعداد الضخمة من البشر الفائض من شأنها أن تحقق أهدافا كبرى ليس أقلها ضمان بقائهم بجوار باب النسق، منتظرين ما سيلفظه من فتات البقاء، البقاء كعبيد دائمين للنسق. فعندما يغازل رشيد الوالي (في النسخة السابقة للالة لعروسة) الزوجات المشاركات و ينوه بشكل خاص بدور "بنت الناس" الذي تلعبنه داخل الدار و داخل المجتمع، فإنه يقود مباشرة إلى تجذير ارتباطهن بالنسق — و كل نساء المغرب من خلالهن– و بالتالي إلى اجتثاث كل إمكانية للثورة ضده أو معاداته أو على الأقل اتخاذ بعض المسافة نحوه[14]. كما أن أكبر وهم يبيعه تجار استوديو دوزيم هو وهم المشاركة

---

[14] تبين الملاحظة العفوية أن القنوات الهامة التي تبث المواد الإعلامية التي ترفع بشكل كبير من الوعي العام لمشاهديها كقناة أرتي الفرنسية/الألمانية يتابعها أقل من واحد بالمائة من المغاربة مقابل استهلاك لا مثيل له لمواد التسطيح المعمم كلالة لعروسة التي تخفي وراء الاحتفاء ب"التقاليد" إرادة ثابتة في تأبيد خرافات بينت الأبحاث الانتروبولوجية و السوسيولوجية اصطدامها مع دعاوي التقدم و الحداثة بسبب تسويقها لقيم موغلة في البداوة من مثل بداهة و طبيعية و كونية و واقعية هيمنة الرجل على المرأة، و بداهة و طبيعية اعتبار المرأة كتلة لحمية يتهددها التحلل و التعفن ما لم تستهلك/تفترس وفق الطقوس القريشية المعروفة.. أنا لست التقاليد.. أنا ضد التقاليد عندما تتحول إلى قذف في وجه الطبيعة البشرية الجميلة.. أنا ضد التقاليد عندما تختزل الوجود الكلي للمرأة في "قفطان" و "حنة" و "عكر" و كل تلك الأمور الحاطة بهويتها المتعددة الباهرة..

في تسيير و إنتاج و قطف ثمار النسق. فعندما تأتي بفتاة مغربية من عمق هوامشنا المترامية و تضعها تحت أضواء كاشفة قوية وأمام جمهور "مناضل" و تطلب منها أداء "أغنية" تكون متيقنا من قدرتها على "الإبداع" فيها فإنك تمنحها – و لكل مراهقات المغرب من خلالها– ما لم تقدر على تحقيقه طيلة حياتها: الإحساس بسعادة فريدة تخترق أحشائها، الإحساس بولادتها الأنطولوجية "كفاعل" داخل النسق (بعدما كانت على هامشه)، والأهم هو أنك ترسخ لديها قناعة خطيرة مفادها أن صباغة الوجه و تضخيم الأظافر و إحكام الطوق على المؤخرة و حفظ أغاني العهر العاطفي هو ما يمكن من الخروج من التيه نحو دار السعادة "الآمنة"، سعادة الحضور اللذيذ بين أحضان الفرجوي **Le spectaculaire** الذي لا ينفذ..

لا بد في الأخير من هذه الإشارة.. قد أفهم نجاح الإعلام كآلة موجهة لتحويل جزء هام من المغاربة إلى قطيع يرعى و لا يفكر، لكن ما لا أفهمه هو سكوت المثقفين عن هذا التجييش المنظم للمغاربة بإسم خرافة الأصول و التقاليد. إن ما لا أفهمه هو كيف أن بعضهم يشن في نصوصه حربا لا هوادة

فيها على ميطافيزيقا الأصل و الهوية، لا تراه ينتج و لو نصا واحدا يساءل فيه إنتاجات إعلامية ترفع التقاليد/الأعراس المغربية إلى مرتبة الثوابت – الأصولية/الإرهابية بالضرورة– للأمة.. لا أفهم كيف يصف هؤلاء المثقفون "التفكيكيون" الميطافيزيقا و بشكل عام كل النزوعات و الممارسات و الطقوس التي تشتم منها روائح الميطافيزيقا بأشد النعوت في نصوصهم و مدرجاتهم و تراهم يتفادون كل مواجهة فعلية و سياسية معها عندما تظهر لهم في تلفزاتهم أو في زوجاتهم أو حتى في ذواتهم.. و تلك حكاية أخرى.

الوظائف السرية لأخطر المجرمين

يتم الترويج ل "أسطورة غياب الصراع الاجتماعي" تصريحا أو تلميحا، سرا أو علانية في أغلب برامج التلفزيون المغربي الحوارية و/ أو السياسية أو الاجتماعية أو الفنية، بل و حتى في البرامج الوثائقية الواقعية أو التاريخية أو البيوغرافية. و قد أثار برنامج "اخطر المجرمين" ضجة وصلت إلى قبة البرلمان و مكاتب بعض جمعيات المجتمع المدني، مما يفرض العودة الى هذه النوعية من البرامج و طرح السؤال عن دورها و وظيفتها في علاقتها بجمهور المشاهدين المحليين.

-1-

الملاحظ أن البرامج التي تعيد تمثيل الجرائم و تسلط الأضواء على أبعادها النفسية بالدرجة الأولى (اخطر المجرمين، مسرح الجريمة) تعزف على نغمة المسؤولية الفردية و سرد تفاصيل تخطيط و تنفيذ الجريمة. يتم التبئير بشكل كبير على الدوافع النفسية لل "مجرم" من جهة، و على المجهودات و الخيوط

الدقيقة التي ساعدت المحققين على تعقب أثره. يتم تقديم الجريمة كواقعة فردية أو جماعية تخص رجال الشرطة بالدرجة الأولى، و الحال أن أبعادها الاجتماعية و الاقتصادية مغيبة بشكل شبه كامل.

إن التعاطف مع الضحية أو الضحايا و دغدغة الشعور بالكراهية و الرفض لفعل الجريمة و مرتكبها لن يمنعنا من إخفاء المسببات الاجتماعية و التربوية و الإيديولوجية و المآزق الاقتصادية التي تفعل فعلها في ظهور "اخطر المجرمين". لا بد من الوقوف على "مسرح الجريمة" الاقتصادية و الاجتماعية في بعض أحياء المجرمين، مثلما نحتاج إلى إعادة تمثيل أفعال "اخطر المجرمين" الاقتصاديين و الاجتماعيين الذين افسدوا البلاد و العباد.

-2-

إن التركيز على البعد الأمني له وظيفة اتصالية تساهم في تحسين صورة رجال الشرطة، و أخرى تثقيفية تساهم في تقريب عمل رجال الأمن المكلفين بالتحقيق في الجرائم الى جمهور المشاهدين. كما أن الاستعانة بآراء و تحليلات متخصصين نفسيين يضاعف من هيمنة المقاربة الفردية الجزئية

للظاهرة/ المشكلة/ الجريمة، و بالتالي يحجب هذا الصنيع آلية خطيرة من آليات التضليل الإعلامي من خلال تحميل الأفراد/ المجرمين كامل المسؤولية.

ذلك أن المسؤولية الجنائية لا تنفي المسؤولية الاجتماعية و مسؤولية الساسة في اعتماد السياسات الكفيلة بالحد من الجرائم الخطيرة التي يتم التطبيع معها رويدا رويدا، بفضل توابل المسرحة و التشويق و تداول أخبار الجرائم على نطاق واسع في اغلب الوسائط الإعلامية التقليدية أو الجديدة، حتى صارت "أخبارا عادية". يتحول بعض المجرمين الى" نجوم" عند المشاهدين مما يضاعف من حجم "الأسطورة" التي صاغتها الأوساط الشعبية عنهم في هذه المدينة أو تلك، أو ربما في المغرب كله (نينجا، و لد....).

-3-

لا شك أن هذه النوعية من البرامج تلقى إقبالا عند اغلب مشاهدي تلفزيونات العالم، إلا أن المبالغة في التفصيل الممل للبعدين الأمني (التحقيق) و النفسي (الدوافع...) يعرف المشاهد المغربي على بعض تقنيات التحقيق البوليسي و طرائق تخطيط و تنفيذ الجرائم "الخطيرة" ومسبباتها الداخلية. و

الحال أن هذا الدور تقوم به السلسلات البوليسية التلفزيونية على أحسن وجه (السلسلات الأمريكية التي كانت تبثها القناة الثانية، سلسلة لابريغاد المغربية...). و لعل الأخطر في هذه " الجريمة" هو أن تتحول إلى مثال يحتدى و يصبح البرنامج درسا بالصوت و الصورة في تخطيط و تنفيذ جرائم من قيل قاصرين أو مشاهدين في وضعية هشاشة نفسية و اجتماعية.

كما أن عدم الخضوع لضوابط أخلاقيات تصوير "المجرمين" و بث صورهم يضاعف من حظوظ "التطبيع" مع الفعل الإجرامي، بل وحتى التفكير في إنزاله على ارض الواقع بدل الاكتفاء بمشاهدة "عتاة" المجرمين يصولون و يجولون و يخططون و يبدعون في الحيل و الألاعيب لتنفيذ و تحقيق ما يصبون إليه.

-4-

و لا شك أن هذا الطرح يستند إلى نظريات الإعلام الكلاسيكية التي تقول بسلبية المتلقي (المشاهد هنا) و ضعفه، مقابل تأثير و قوة البات (التلفزيون هنا). و هو ما أثبتت الدراسات و البحوث نسبيته و عدم اطلاقيته،

حيث ظهرت اتجاهات أخرى تقول بقوة المتلقي و طرحت سؤال ماذا يفعل المشاهد بالتلفزيون؟ بدل سؤال ماذا يفعل التلفزيون بالمتلقي؟...

غير أن متغيرات السياق المغربي و طبيعة الجمهور الناشئ في المغرب، و بث البرنامجين في وقت الذروة تؤكد وجاهة الطرح الذي يفترض التأثير السلبي للبرنامجين. ذلك أن **ضعف التأطير المهني التلفزيوني و التخصصي العلمي للمشاهد المصورة** (يتم التركيز على مسار المجرم و الجريمة، مقابل تقديم المشاهد في قالب مليء بالتشويق و الإثارة) **يخلق خللا وظيفيا واضحا في رسالة البرنامج التلفزيوني** في قنوات يفترض فيها أداء الخدمة العمومية.

-5-

إن تصور برنامج "اخطر المجرمين" القائم على الحكي و **إعادة تمثيل مشاهد الجريمة و "تخطيطها"، يجعلها أكثر تأثيرا و نفاذا من أقوال و تدخلات المسؤولين الأمنيين أو المتخصصين** في علم الإجرام و علم النفس. فما يبقى و يرسخ في ذهن الجمهور غير المؤطر هو المشاهد المصورة و أقوال المجرم المصاحبة لها، لامايقوله ضابط الأمن أو الخبير أو الأستاذ. هنا تكون إزاء

عدم تكافئ صارخ: مشاهد إجرامية سلبية بالصوت و الصورة، و مقتطفات من أقوال ضد الجريمة لثوان معدودة يقولها رجل امن أو خبير قد لا ينتبه لها بعض المشاهدين أو يعتبرونها نشازا يعطل عجلة الحكي و يطيل التشويق..

إن ارتفاع معدلات الأمية و مؤشرات الانحراف و الجريمة بمختلف أنواعها في المغرب؛ خاصة لدى المراهقين، يجعل بث البرنامج في وقت الذروة و إعادته في المساء قد يؤدي إلى خلق نوع من **التماهي** بين المشاهدين و "الأبطال" المجرمين. فقد يتحولون – أمام الفراغ الذهني و الوجداني و العملي و أنواع الإحباط و الهشاشة الاجتماعية و النفسية – إلى شخصيات نموذجية يجدون في أفعالها و "بطولاتها" خلاصا منقذا من ضلال الواقع المر.

من ثمة يطرح السؤال: هل التلفزيون المغربي في حاجة إلى تقديم نماذج إنسانية ايجابية أم إلى تقديم النماذج التي "تلاءم" الأغلبية الساحقة من المغاربة المغلوب على أمرهم؟ . ألا يدري من بيدهم الحل و العقد أي نموذج بشري مغربي يصنعون؟.

نحو قراءة جيواستراتيجية

للمسلسلات الدرامية التركية

إن أهم ما يجب أن يثير اهتمامنا في محاولة قراءة المسلسلات الدرامية التركية التي تبثها بإلحاح مشبوه القناتان المغربيتان الأولى و الثانية هو السؤال التالي: أي هدف استراتجي/تاريخي عميق تروم المسلسلات المذكورة تحقيقه؟[15]

في نص أخر، ألحت إلى أن أهم شيء يجب البحث عنه في أي إنتاج تلفزي أو علمي أو أدبي هو ذلكم السؤال التاريخي غير المصرح به الذي يشكل الإنتاج المذكور بشكل ما ردا/جوابا سريا عليه.. إذا قبلنا بهذه الفرضية، فإن المسلسلات التركية على "تفاهة" ما تقدمه تحمل دلالات لايمكن فهمها إلا من خلال موقعتها في السياق العام الذي أنتجت فيه، و الذي هو، في اعتقادي،

[15] تشكل الأفكار المقدمة هنا تطويرا لنقاش لم يكتمل للأسف مع زميل رحل بعيدا عنا..

سياق رغبة الدولة التركية في تحسين موقعها الاستراتيجي وسط العالم بشكل عام و أمام الاتحاد الأوروبي بشكل خاص.. كيف ذلك؟

على عكس القراءات الفولكلورية التي ترى في المسلسلات التركية أداة ترويج لمنتوج سياحي "باهر"، أتصور أن ما يجب الانتباه إليه هما أمران:

-أولا، عندما ندقق في حكايات المسلسلات التركية نجد أن ما يثوي في جوفها العميق هي الرغبة الجيواستراتجية العارمة في تقديم تركيا في صورة "حداثية" و "عصرية" و "منسجمة" مع العصر، تركيا لا علاقة لها ب"أصولية" الحزب الحاكم و لا عموما بالخلفيات الإسلامية أو "الإسلاموية" التي تشكل مصدر انزعاج بل تخوف أوروبا و أحد أسباب ترددها في منح التأشيرة لتركيا للانضمام للاتحاد الأوروبي.. أتحدى أي كان أن يجد في أي مسلسل تركي من كل تلك المسلسلات التي بثت إلى حد الآن أية إشارة إلى الخلفيات الإسلامية "للأمة التركية". لقد فهمت تركيا – وهذه هي لعبتها الإستراتجية و الفلسفية الكبرى– أنه بإمكان الانتاجات الدرامية أن تروج أكثر و أفضل من أية وسيلة أخرى "صورة أوروبية" عن تركيا، صورة قادرة على أن تحدث ثقوبا حاسمة

في جدار الأحكام "العدائية" التي لازالت تسكن عقول الأغلبية الساحقة للفاعلين السياسيين الأوروبيين.. إن مهند – الفتى "السطحي" بل "التافه" كما تقدر القراءات المتسرعة– يشكل في هذا السياق شخصية فلسفية/مفهومية بامتياز، لأنه يكثف بقوة نادرة صورة تركيا "جميلة و وديعة" غير قادرة على الإطلاق على إلحاق الأذى بأي كان، تركيا، فضلا عن ذلك، منخرطة بقوة في دورة الاستهلاك الدولي (وهذا واضح من ألبسة و مأكولات و سيارات و أماكن تردد شخصيات الحكاية).. إن هذه الصورة الاستيهامية كما نرى هي بالذات ما تبحث عنه و تطلبه و تشترطه دول الاتحاد الأوروبي في أية دولة تريد الدخول إلى فضاءها..

–ثانيا، إذا ما قبلنا بهذه الفرضية، فلا بد لرؤيتنا لتركيا أن تخرج من ثنائية غير صالحة البتة تقابل بين عسكر "علماني" مدافع عن ارث أتاتورك من جهة، و حزب حاكم يريد "أسلمة" الدولة و الاقتصاد و المجتمع كما هو متداول لدى الأوروبيين المعنيين الأوائل بالرسالة الجيواستراتجية للدراما التركية.. ما أريد قوله هنا هو أن الحزب "الإسلامي" الحاكم، و قد فهم جيدا

طبيعة اللعبة الكبرى الجارية في العالم، هو الآن في طريقه لتغيير جلده "التاريخي"، و التحول من حزب تقليدي مشدود إلى خلفية "ميطافيزقية" لن "تنفع" في تحقيق أي شيء هام لتركيا في إطار لعبة شد الحبل داخل العلاقات الدولية المعقدة، إلى حزب براغماتي جذري واع بضرورة نحت و تسويق الصور و الاستيهامات الجيوسياسية القادرة على افتراع القلاع الذهنية الأوروبية و الدولية..

قد يعترض القارئ و يقول بأن هذه الفرضية لاتصمد كثيرا أمام "التوجه الإسلامي الفعلي" للدولة التركية في كثير من الملفات "الحيوية"، و منها ملف "حملتها" الأخيرة على إسرائيل.. أرد هنا بما يلي: إن هذا التوجه ليس سوى ورقة تلعبها تركيا لتثير الانتباه إليها و إلى دورها غير القابل للتجاوز في المنطقة.. في الواقع، إن ما تريد تركيا قوله لأوروبا هنا هو ما يلي: إما أن تمنحوني المكانة التي أستحقها أو أتحول إلى مشاغب كبير على البوابة الشرقية لأوروبا.. على مستوى تقنيات التواصل الدولي، نعلم أن الأمر يتعلق بلعبة

جيدة لزعزعة عقائد العدو وجره لتحديد النظر في مفاهيمه و علاقاته.. هذا كل ما في الأمر..

في الأخير، إن السؤال الذي لابد أن نستحضره بقوة نحن المغاربة هو: إذا كانت المسلسلات التركية تخدم أجندة جيوسياسية دقيقة وعميقة خاصة بالدولة التركية[16]، فما هو ياترى الهدف "الجيوسياسي الدقيق و العميق" الذي نتوخاه نحن المغاربة من وراء إذاعتها في قنواتنا؟ بعبارة أخرى، إذا كانت الدولة التركية واعية بما تفعل بدراماها، فما عساها تربحه الدولة المغربية من وراء جلوسنا "الجيوسياسي" للساعات الطوال أمام حكايات شخوص تتوجه برسالتها الملتهبة نحو أوروبا و العالم فيما لا نحتفظ نحن إلا بقشور حكايات "الضياع"؟[17]

[16] إن الهدف الجيواستراتيجي العميق الثاني من وراء التسويق الواسع للمسلسلات التركية هو الرغبة في تعويد المشاهد العربي العادي على الوجوه التركية قبل المرور الى الخطوة الأساسية الثانية: تسويق السلع و البضائع باستغلال التعاطف النفسي مع الوجوه/الهوية التركية كما بني و صرف من خلال الدراما.. هي خطة امبريالية قوية لانعرف لها سبيلا في بلاد الاستبداد و الفساد و التخلف...

[17] عنوان أحد المسلسلات التركية "الشهيرة"..

اعطاب تربوية

الاشراف التربوي وإعادة إنتاج السلطوية

في الفصل الثاني من كتاب "السلطوية في التربية العربية" الذي ألفه يزيد عيسى السورطي والصادر عن سلسلة عالم المعرفة، العدد 32، أبريل2009، يبسط الباحث مظاهر السلطوية في الجانب الإداري للتربية، ويقف على أعراضها الكثيرة وسنقف في هذا العرض على مظاهر السلطوية في الإشراف التربوي والإدارة التربوية.

1 ــ السلطوية في الإشراف التربوي.

كثيرا ما يمارس الإشراف التربوي في عدد من المدارس العربية كعملية سلطوية مزاجية تفتيشية تهدف إلى تخويف المعلم وإحراجه وإظهار نقاط ضعفه، دون بذل جهد كبير لمساعدته على التغلب عليها. في هذه الحالة ــ يؤكد السورطي ــ يتحول المعلم إلى تلميذ ويصبح المشرف معلما تقليديا سلطويا يلقن ويعاقب من يشاء بطريقة عشوائية في أحيان كثيرة. والحال أن "جوهر" الإشراف التربوي هو إقامة تفاعل بين المعلم والمشرف يؤدي إلى تغيير إيجابي في سلوك المعلم.

ومما يزيد من قلق المعلمين وخوفهم من المشرفين غلبة الذاتية والمزاج على كثير من تقاريرهم التقويمية، حيث توصل أحد الباحثين الذين درسوا أوضاع الإشراف التربوي في عدد من البلدان العربية إلى أن أكثرية التقارير الرسمية التي يعدها المشرفون التربويون حول المعلمين بعد زياراتهم لهم انطباعية وليست ملائمة من حيث دقتها وشموليتها لتكون أساسا لتطوير عملية التعليم، كما تفتقر إلى الموضوعية ويتم الإشراف التربوي بعيدا عن المبادئ التي يستند إليها الإشراف التربوي بمفهومه الحديث ومنها الديموقراطية والتعاون والشمولية والموضوعية.

وتبين الدراسات المنجزة أن الفائدة التي يجنيها المعلمون من زيارات المشرفين محدودة وسبب ذلك أن الاجتماع الذي يعقب الزيارة كثيرا ما يتميز بالسلبية والسطحية. فالمشرف يتسم بالمباشرة في تفاعله اللفظي مع المعلم. والحوار بين المشرف والمعلم يكاد يكون مغلقا، وكثيرا ما يتميز بالسلبية والسطحية، وكثيرا ما يتناول الاجتماع جزئيات السلوك الطافية على سطح الموقف التعلمي ــ التعليمي من دون الخوض في أعماقه تحليلا وتقويما.

وإجمالا، يتسم الإشراف التربوي بشكل عام بالسلبية والمباشرة والاستئثار بالحديث واللاودية والنقد وعدم الاستثمار، كما أن المعلمين رأوا أن الإشراف يستبعد أي اعتبار لقيمة المعلم ونموه الشخصي ومشاعره.

ويخلص السورطي إلى أن عجز الإشراف التربوي العربي بشكل عام عن تحقيق كل أهدافه يعود إلى أسباب كثيرة يقف على رأسها اعتماده على السلطوية المتمثلة في ضعف العلاقة بين المعلم والمشرف وقيامها على التحكم والخضوع بدلا من التعاون والتفاعل والثقة المتبادلة.

2 ـــ السلطوية في الإدارة التربوية

يحدد الباحث الهدف الرئيسي للإدارة التربوية في الارتقاء بالتعلم والتعليم، ويعمل الإداريون التربويون على تحقيق ذلك عبر أداء وظائف أبرزها إعداد الأهداف والسياسات وتطوير البرامج اللازمة لتحقيق تلك الأهداف والسياسات، والعمل على تخطيط وتنفيذ تلك البرامج وإدارة المصادر والأموال والمواد اللازمة لدعم المؤسسة وبرامجها ومتابعة كفاءة وفعالية عملية تحقيق الأهداف. وعليه، تكونَ الإدارة التربوية

عملية منظمة تهدف إلى الاستخراج الأمثل للطاقات البشرية والمادية من أجل تحقيق أهداف المجتمع التربوية ...

وتشير الدراسات إلى أن الإدارة التربوية في بعض بلدان الوطن العربي يغلب طابع التسلط عليها، وكثيرا ما يأخذ ذلك شكل المركزية الشديدة التي تعني الاتجاه نحو تركيز السلطة والرجوع إلى ديوان الوزارة في كل القرارات المنظمة للعمل. ويؤكد الباحث أن من كبرى المشكلات التي تواجه المدارس العربية هي "مشكلة المركزية الإدارية المتطرفة التي تجعل من الهيئات المدرسية أدوات لتنفيذ تعليمات وأوامر الجهاز المركزي". كما تشير إحدى الدراسات إلى ضعف القدرات الإدارية لدى مديري المدارس ومعاونيهم، وعدم توافر الجو الذي يؤدي إلى السلوك السوي عن طريق مشاركة الطالب في اتخاذ القرارات والنزعة التسلطية في الأساليب الإدارية، وهيمنة المركزية والبيروقراطية على الإدارة.

لعبة وضع حد للمدرسة العمومية

قدمت كثير من التحليلات تصوراتها للأعطاب الكبرى ل"المخطط الاستعجالي لإصلاح التعليم".. لكن قليلا منها انتبه إلى أمر استراتيجي و خطير للغاية يوجه و يحكم كل المشاريع 23 التي يتضمنها المخطط.. وهو أمر لايظهر على سطح المخطط، أو يظهر بشكل ملتبس و مراوغ..

نقرأ في الصفحة 80 من نص "المخطط": "تلتزم الدولة بتسهيل استثمار الخواص في قطاع التعليم، من خلال وضع آليات تحفيزية لاقتناء الأراضي بشروط تفضيلية، و تمويل كلفة الاستثمار لتحمل جزء من كلفة البناء"، و ذلك في أفق "تطوير نموذج جديد و متكامل للعرض التربوي الخاص، ينتظم حول متدخلين خواص، من حجم كبير، باستطاعتهم تغطية مجموع التراب الوطني، و يشتغلون في مجموعات مدرسية معترف بقيمتها".. يتعلق الأمر إذن، و بشكل واضح، بالتزام الدولة بمساعدة مجموعات مالية جديدة و صاعدة للهيمنة على قطاع التربية و التكوين و الاستثمار فيه بأدوات الدولة و

بدعم منها في كافة المجالات (وهو ما يؤكده الحديث السابق عن التفويتات العقارية و الإعفاءات الضريبية).. يوضح هذا التوجه، لمن لازال تحت سطوة المخدرات الوزارية، أن الدولة المغربية عازمة، و أكثر من أي وقت مضى، على إتمام مسلسل استقالاتها من التزاماتها الأخلاقية و الدستورية بتوفير تعليم واحد و موحد و عادل، تعليم يوفر نفس الحظوظ و نفس الانطلاقات في الحياة لكل المغاربة، كيفما كانت أوضاعهم و ألقابهم و ألوان عيونهم.. إن من النتائج الفورية لهذا التوجه أن غالبيتنا سوف تجد نفسها خارج القدرة على المسايرة، أي بشكل أدق خارج القدرة على ولوج معاهد الأقليات الناجية، في واحدة من أكبر جرائمنا العنصرية التربوية بل و الوجودية.

لنتقدم أكثر و نطرح السؤال الأكبر و الأفدح : ماذا لو كان المخطط لعبة تكتيكية لا غير لربح الوقت قبل نزول حكم 2013 الذي لا راد له؟ ماذا لو كانت سنوات المخطط هي نفسها السنوات التي تفصلنا عن دخول المغرب فضاء التحرير الشامل للقطاع؟ ماذا لو لم يكن المخطط غير مناورة تاريخية لإنتاج النقيض المطلق المرغوب فيه في السر؟ ألن يخلق فشل المخطط – وهذا

أكيد[18]– رجة/صدمة نفسية كبرى ستبدد ثقة أشد المتفائلين وتدفعهم نحو الانقلاب النهائي عن التعليم العمومي و التوجه بقلوب خاشعة راضية مرضية نحو التعليم الخاص؟

في الواقع، إننا نوجد هنا أمام جريمة فائقة التنظيم.. في كل دول العالم هناك تعليم جماهيري حقيقي بل جيد واسع وأخر موجه إلى القلة القليلة.. إلا أن المغرب هو ربما الدولة الوحيدة العضو في منظمة الأمم المتحدة التي تدافع عن التعليم العمومي في الجهر و تعمل على خنقه في السر، الذي تحول جهرا في السنوات الأخيرة[19].. لذلك، و ما لم تتراجع الدولة عن سياستها في ضرب المدرسة العمومية و استبدالها بمدرسة خصوصية ذات توجهات فرنكوعولمية واضحة، فلا يمكن بالمطلق تصديق كل تلك الهذيانات "الإصلاحية" التي يطلقها

---

[18] بعد أكثر من سنة على كتابة هذا النص، جاء الوزير الوفا أمام البرلمان ليبشر الأمة وببرودة دم مشبوهة بفشل المخطط.. ألم أقل لكم أن الأمور كانت معدة سلفا، و أن حاميها حراميها، و أن....

[19] في الوقت الذي كانت فيه النخب المقررة في الشأن التربوي المغربي تدافع "بقوة" عن المغربة و التعريب و "حق" كل المغاربة في الحصول "المتساوي" على "نفس" الحظوظ التربوية كانت تلجأ في السر نحو وضع أبنائها في مدارس النخبة و النخبة الفائقة و .. في واحدة من أكبر عمليات التلاعب بالمغاربة في مرحلة "الاستقلال"..

تقنوقراط معقمون جيدا ضد مفهوم المدرسة "العمومية، المساواتية، الناجحة" !!!.

ومع ذلك، لا يمكن تحميل الدولة وحدها المسؤولية.. يحكي لي زملاء داخل كليات مختلفة كيف أن كثير من الأساتذة يتسابقون كل بداية سنة نحو المدارس الخاصة المدرة للمداخيل الخرافية —على حساب، و هذا لم يعد خافيا على أحد، مهامهم الأصلية.. هؤلاء ليسوا أساتذة، هؤلاء تجار حرب في جلد أساتذة.. أما الطرف الأخر، المجتمع، فيبدو أنه لم تعد له أية مشكلة مع تبني الخيارات الفردانية الجرثومية في المدرسة و الحياة، و الدليل أنه بدأ ينظر إلى المدارس الخصوصية باعتبارها ممرا باهرا لتحقيق النجاح المهني و الاجتماعي و "الديني" حتى..

رهانات الأستاذ المغربي

اليوم: الخميس السادس من يناير 2012، الساعة : السادسة و خمسة و أربعون دقيقة، المكان: القطار الرابط بين فاس و مراكش.. في محطة سيدي قاسم، صعد أربعة أشخاص تتراوح أعمارهم بين الثلاثين و الخمسين سنة.. وفورا بعد دخولهم إلى المقطورة التي كنت بها، بدؤوا في الحديث عن الامتحانات و التصحيح و.. أنا سعيد جدا، فالأمر يتعلق بأساتذة.. تخيلت في البداية أن الجلسة ستكون تربوية مائة بالمائة و سيمكنني ربما التدخل إذا ما سمح لي بذلك.. لا بد أن أعترف أنني سقطت مرة أخرى ضحية سذاجتي المفرطة.. لقد حسم الأساتذة الأربعة النقاش حول موضوعهم في جملتين أو ثلاثة.. قال الأول بالحرف: "في الواقع إن صديقنا (سي فلان) كان محظوظا جدا.. لقد انتهى من تصحيح أوراقه في حوالي نصف ساعة.. كانت أوراق الامتحانات فارغة (ما كان فيها والو) ما جعل التصحيح يمر في ظروف جيدة (داز مخير)".. أما الثاني فأضاف في تعليق يحمل بوادر فلسفة تربوية جديدة لابد أن

من هدموا أسنانهم في البحث عنها سيحمدون الله كثيرا عند قراءتها: "إن تلاميذ العلوم الرياضية يعذبون المصحح.. لقد لاحظت أن بعض المصححين يعانون (كاييقاو عاركين) مع الورقة الواحدة وقتا كبيرا.. و السبب أن تلميذ العلوم الرياضية يكون متمكنا و عارفا بما يقدمه". أما الأستاذ الثالث فلقد تدخل رغبة منه بالتأكيد في إثراء هذا النقاش الفلسفي العميق !!: " لقد استغليت فترة الغذاء لأصحح.. أنا لا أخذ معي لابابراس la paperasse أبدا إلى المنزل..."..

تم إنهاء هذا الحديث في موضوع "مقرف" قبل أن يدخل القطار محطة سيدي سليمان.. لم أفهم لماذا.. لم أفهم إلا بعد برهة.. ففي هذه المحطة التي تختفي وراء رخامها الباهر مدينة نبتت "من عند الله" كالشوك البري، تحول النقاش مائة و تسعون درجة نحو كرة القدم.. بالتأكيد كان يفعل داخل كل واحد من الأساتذة نداء/انجذاب جارف نحو شيء أخر، شيء مدعو و قادر على أن يمحو أوجاع تربوية لاتستحق أي "طبيخ" (وجع رأس) من أجلها..

لنعد إلى قطارنا العجيب.. من سيدي سليمان إلى القنيطرة – وهي المسافة التي يقطعها القطار في حوالي 35 دقيقة– تركز النقاش بشكل مفصل عن الكاك و رئيسه، وعن الملاعب الاصطناعية، و عن القرقوبي (نوع قوي من المخدرات) لدى الجمهور، و عن ملعب شيفلد و جثثه الشهيرة، و عن ملعب الستانتياغو برنابيو و "وعورية" (حرفية) المسؤولين الاسبان في تجديد عشبه، و عن ريادة هولاندا في مجال صناعة عشب الملاعب، و عن لاعب قنيطري باهر ضيعه الكاك و باعه لفريق الكوكب المراكشي، و عن الاحتراف الذي نصح به أحد المتدخلين بعض الأعضاء الجامعيين، و عن شرعية/لاشرعية توجيه البطاقة الحمراء بعد انتهاء المقابلة، و عن ملاعب مراكش و طنجة و أكادير التي ستضع المغرب على سكة الحداثة الكروية، و عن...

عند محطة سيدي يحيى – المدينة التي تشبه "مدن" البانكلاديش في كل شيء– نزل أحد الأساتذة الأربعة "مكرها".. نزل و هو لازال يشرح بصخب أهمية الاحتراف و..

بين سيدي يحيى و القنيطرة -المدينة لم تعد تحمل من معالم التمدن إلا القليل السائر إلى حتفه-، استمر النقاش عن "أخطر" جمهور كروي بالمغرب، و عن الامتيازات التي يحظى بها جمهور فريق مغربي شهير عند نزوله بعيدا عن قواعد فريقه، و عن محسن ياجور الذي ضيعه "تهوره" و ضاع فيه المغرب كله، و عن..

نزلت بمحطة سلا تابريكت (سلا، المدينة التي تتهارش حول ما تبقى من جثتها ذئاب و ضباع و أنواع بشرية أخرى غير معروفة).. وفي سيارة الأجرة التي حملتني من محطة القطار نحو دار الوالد و الوالدة، رأيت كابوسا: أساتذة متحولون des mutants ، أساتذة بدلوا جلدهم وهويتهم و أفاقهم في الحياة، أساتذة تنازلوا للبلداء مثلي عن هم التلميذ و المغرب و العالم و الفكر و الوجود.. وهنا تذكرت فقرتين لمعلمي ادغار موران، تشيران بكل البذخ المعروف عن هذا القارئ النادر لتعقيدات عالمنا إلى المهمة الأولى للمربي في عصرنا: " يجب أن نبدأ في معرفة المشاكل الكبرى للعالم، حتى و إن كانت هذه المعرفة غير يقينية و صعبة، و إلا سقطنا في الإعاقة الذهنية. يتطلب العصر

الكوكبي أن نموقع كل شيء في السياق و المركب الكوكبيين. لقد أضحت المعرفة بالعالم كعالم ضرورة في الوقت ذاته فكرية و حيوية. إن القضية الكونية لكل مواطن في هذه الألفية الجديد هي: كيف يمكن الوصول إلى المعلومات حول العالم و كيف يمكن الوصول إلى إمكانية مفصلتها و تنظيمها؟ كيف يمكن تمثل و تصور السياق، و الشمولي، (العلاقة بين الكل و الأجزاء)، و المتعدد الأبعاد، و المركب؟ وحتى يمكن مفصلة و تنظيم المعارف، و من ثم الإقرار و معرفة مشاكل العالم، يجب القيام بإصلاح للفكر. و الحال أن هذا الإصلاح يجب أن يكون منظوماتيا و ليس برنامجتيا: هذه هي القضية الأساسية للتربية، لأنها تتعلق بقدرتنا على تنظيم المعرفة" (**المعارف السبعة الضرورية للتربية المستقبلية**، اليونيسكو، 1999، دار توبقال، الدار البيضاء، 2002)..

ثم : "إذا كان صحيحا أن الجنس البشري يتوفر بداخله على موارد إبداعية لاتنضب، إذاك يمكن أن نتصور بالنسبة للألفية الثالثة إمكانية إطلاق إبداع جديد قام القرن العشرون بتوفير إرهاصاته و بوادره الأولى: يتعلق الأمر بمواطنة

أرضية. و إن التربية، التي هي في نفس الآن نقل للقديم و انفتاح للعقل

لاستقبال الجديد، توجد في قلب هذه المهمة الجديدة" (نفس المرجع)..

مشاهد من مستقبل التعليم بالمغرب

كثيرا ما تثيرني بعض المشاهد الحياتية البسيطة في ظاهرها لكن الملتبسة على مستوى عمقها.. و كثيرا ما تمتلكني رغبة جامحة في الكتابة عنها في محاولة لفهم أو على الأقل الاقتراب من كل تلك الدلالات الكبرى الثاوية وراء تفاصيلها الصغرى..

سأحاول في هذه الورقة تقديم بعض المشاهد التي تكشف عن بعض آليات صناعة نخب البلاد.. بطبيعة الحال، يتعلق الأمر هنا بمشاهد تحتمل قراءات مختلفة.. فأنا ضد اختزال الأمور في واحد من أبعادها.. يبقى إذن للقارئ كامل الحرية في تأويل ما سأقدمه بالطريقة التي تناسبه.. و مع ذلك، و كما يقول بيير بورديو Bourdieu في كتبه "الورثة" (1964) و "التميز" (1979) و "الإنسان الأكاديمي" (1984) و "نبالة الدولة" (1988) التي أعتبرها من أحسن ما كتب في العلوم الإنسانية في القرن الماضي، من الأفضل الإقرار بأنه من الممكن جدا توريث العالم، شريطة التوفر على المال، و أهم من

المال، على الأدوات التربوية و الاستراتيجية لإنجاح و تأبيد التوريث و التحكم و القيادة..

المشهد الأول

في منتصف أحد أيام بداية الموسم الدراسي الحالي، وبينما كنت أنتظر بجوار معهد تعليمي نخبوي خاص أية عربة لتنقلني من طريق ايموزار نحو وسط المدينة، أثار انتباهي مشهد يحمل في ما أتصور دلالات تاريخية كبرى (بالمعنى الهيغيلي المعروف الذي يفيد بأن بعض مشاهد الحياة اليومية "العادية" و "المألوفة" تكون منبئة بتحولات هادرة حقيقية).. هاكم المشهد.. اللقطة الأولى: طفلان صغيران "أنيقان جدا" يخرجان من بوابة المعهد و يتجهان في نظام مهيب نحو سيارة/مصفحة يمنع زجاجها العازل رؤية أي شيء بداخلها.. اللقطة الثانية: يدخل الطفلان إلى "القلعة" المحصنة و يأخذان مكانهما دون أن ينبثا بكلمة واحدة. اللقطة الثالثة: يتسمر الطفلان أمام جهاز تلفاز معلق أمامهما كان يبث حينها برنامجا فهمت، في الثواني القليلة التي تمكنت فيها من استراق النظر، أنه برنامج علمي أو تقني من النوع الجاد جدا.. اللقطة الرابعة:

يغلق السائق الباب دون أن يلتفت نحو الطفلين.. اللقطة الأخيرة: تنطلق السيارة العجيبة و ينطلق الطفلان – في لامبالاة تامة بتلصصي الهيغيلي – نحو مصيرهما المحتوم، مصير من يحضر لأن يحكم كل الأطفال الآخرين المحشوين، في الجهة الأخرى من طريق ايموزار، في مدارس "المخطط الاستعجالي" و "بداغوجيا الادماج" و "التأهيل التربوي الديموقراطي الحداثي"..

المشهد الثاني

أحالتني هذه الواقعة إلى واقعة أخرى عشتها أحد أيام سنة 2005 بالرباط. في تلك الفترة، كان أحد أصدقائي الأعزاء قد استضافني لأنشط حصة داخل فصله بإحدى المجموعات التعليمية الخاصة بالرباط.. كان الأمر يتعلق بقسم السنة الثانية ثانوي إذا لم تخنني الذاكرة.. كان الموضوع الذي اخترته هو "نظريات التواصل".. عندما دخلت إلى الفصل، صدمت بأشياء كثيرة، ومنها العدد المعقول جدا للطلبة و الطالبات (كانوا تقريبا خمسة عشر).. وبعد التحية و الشكر للصديق و للمؤسسة المستقبلة و للطلبة، بادرت إلى تقديم ما

اعتبرته النظريتان الأساسيتان للتواصل.. شرحت بأن النظرية الأولى تقوم على فرضية أولوية المرسل على المرسل إليه، فيما ترصد الثانية أكثر العناصر التفاعلية بين الأطراف المتواصلة.. وعندما طلبت من الطلبة أن يمنحوني أمثلة عن النظرية الأولى، تلك التي يكون فيها طرف واحد، هو المرسل، هو من يتحكم في مخارج و مداخل عملية "التواصل" كلها، كنت متيقنا (يا لذكائي الخارق !!) من أنهم سيعطوني المثال الأول الذي يخطر للتو على البال والذي هو التواصل داخل العائلة المغربية.. ولكم كانت صدمتي شديدة عندما أجابوني بأنه لايمكن أن نتصور نسقا واحدا يكون تحت الرحمة المطلقة لطرف ما، كيفما كانت قوة هذا الطرف.. وعندما طلبت رأيهم في النسق العائلي المغربي، في محاولة مني "لاستفزاز" يقينهم هذا، أجابوني بنباهة لن أنساها أبدا بأن حتى هذا النسق يشتغل بشكل تفاعلي و مركب.. صمتت للحظة، ثم طلبت منهم الدليل على قولهم، فأعطوني أمثلة منتقاة بدقة كبيرة توضح كلها كيف أن القرار داخل العائلة (عائلاتهم) يتخذ دوما عبر الحوار و التفاوض و تبادل الرأي و الرأي المضاد.. كان هذا هو الدرس الأول الذي مزق أحد حجب جهلي الحاد.. أما

الصفعة الثانية فتلقيتها عند جوابهم عن سؤال حول نسق التواصل الدولي الذي يبرهن على "صحة" نظرية الهيمنة المطلقة لمركز/مرسل قوي و كاسر (و كنت قد ألمحت إلى الولايات المتحدة الأمريكية و الغرب عموما) على مجموع الأطراف الضعيفة التابعة الأخرى.. لقد قالوا لي و بإجماع صادم : "إن العالم المتخلف ومنه إفريقيا يوجد بطبيعة الحال الآن في حالة تلقي للمنتوجات و التقنيات و العلوم التي يصدرها الغرب إليه، و لكننا متيقنون يا أستاذ من أن نفس هذا العالم سيخرج في الخمسين سنة المقبلة من وضعية التلقي و الاستهلاك نحو سياسة الإنتاج و الإبداع و الاستقلالية"[20].. لقد صفعت لأنني لم أتلق في الكلية "العمومية" التي أشتغل بها مثل هذا الجواب طيلة السبعة عشر سنة التي هي مدة "تدريسي" بها.. إنه الفرق الضوئي بين تعليم عمومي يلقن الجهل، و تعليم نخبوي (ليس كله) يمنح لطلبته الأدوات الفكرية الكفيلة بالمساعدة ليس فقط على الفهم الاستراتيجي الدقيق لآليات اشتغال العالم، و لكن أيضا على الإبصار الاستباقي لما سيكون عليه العالم..

---

[20] يسير ما يحدث بتونس و مصر و ليبيا و اليمن و سوريا و ما سيحدث بأقطار عربية أخرى آت دورها لاريب في اتجاه هذا الحدس التلميذي الهيغيلي العظيم.

المشهد الثالث

لا بد أن القارئ الكريم قد صادف منذ مدة[21] على شاشة التلفاز إعلانا لأحد الفاعلين المغاربة في مجال الاتصالات يظهر سيدة فرحة جدا بفوزها "بسيارة فخمة".. أنا لا أريد هنا التوقف عند هذه الاستيهامات البورجوازية الصغيرة "للطبقة المتوسطة" بالمغرب.. إن هدفي هو إثارة الانتباه إلى الجملة التي يتلفظ بها طفل صغير يبدو أنه ابن السيدة في أخر الإعلان و يقول فيها بالحرف: " **Elle est superbe la voiture, merci Maroc Telecom** "[22].. إنه لأمر مثير حقا أن يتحكم طفل صغير لايبدو أنه قد تجاوز الخمس أو ست سنوات كل هذا التحكم في اللغة الفرنسية.. لكن ليس هذا هو المهم.. إن المهم يوجد في مكان أخر، في ذلك التمييز الأساسي الذي يجب أن نقوم به بين مستويين في التحليل: مستوى التميز اللغوي الذي يشكل في حد ذاته أمرا ايجابيا جدا، و مستوى "التميز" الاجتماعي الذي يقدم التحكم

---

[21] أذيعت الوصلة الاشهارية المعنية هنا أواسط 2010.

[22] إن مجرد التحدث بالفرنسية في موضوع "مغربي" يغني عن أي تعليق.. مؤسف حقا أن تكون اللغة الفرنسية – أي بعبارة أدق الذهنية الفرنسية أو على الأصح الفرنكوكولونيالية- هي السيدة عندنا، بعدما يقرب من ستين سنة من "الاستقلال"..

"الفرنسي" في اللغة الفرنسية (أو على الأقل الحديث بها) شرطا أساسيا للانتماء/الفوز بالعالم.. فنحن نفهم سرا أنه سيكون من العيب بل و من غير اللائق أن نعبر عن فرحة بسيارة فخمة بلغة الدرب و الحومة و.. بعبارة أخرى، لايجب أن نرى في تحكم طفلنا الصغير في اللغة الفرنسية مجرد أمر بداغوجي يجب أن نسعد له. لا. إن الأمور، منظورا إليها من زاوية التحليل التاريخي/الهيغيلي للأشياء "العادية" للحياة، هي أعقد من ذلك بكثير، و إلا كيف نفسر ذلك السلوك الاجتماعي و الذهني لكثير من "المغاربة" أصبحوا يعيشون أمورهم الكبرى و الصغرى داخل أسوار فضاء لغوي/اجتماعي مفصول نهائيا عن مغرب كل "الآخرين" من كل نوع؟ أليس هؤلاء خرجوا جميعا ذات يوم من مدرستهم النخبوية الخاصة و ركبوا سيارة مصفحة و لقنوا في طريقهم لغة/اجتماع الانفصال عن البشر و العالم؟.

الفهـــرس

العولمة في بعض حالاتها

المغرب و مخاضات الانتقال نحو الحداثة

أعطاب تربوية

هذا الكتاب

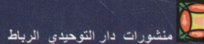
ما هي الرسائل السرية للعولمة؟ كيف تساهم العولمة في تنمية التخلف و الزيادة في وحشية الذئاب البشرية؟ ما هي اللعبة الجديدة للرأسمالية؟ و كيف تتحول نحو مزيد من الكانبالية؟ و كيف يمكن الهروب منها؟ كيف أصبحت كرة القدم أفيون الشعوب؟ و ما هي شفرة سطوة البارصا؟ ما هي السياسات الخفية للإشهار؟

ما هو هذا الموت الجاثم على صدر "المدينة"؟ كيف يتفكك المغرب في زمن "التغييرات الدستورية"؟ كيف تتحكم "أصوليات حداثية" في ذهنية النخبة؟ ماهي مخاضات الانتقال نحو الديموقراطية و الحداثة السياسية والاجتماعية في المغرب؟ كيف يستشري الفساد و اللامساواة و الهيمنة؟ كيف تمنع المرأة من ولوج الحداثة؟ ماهي الأسباب الجذرية لرفض المغاربة للتغيير الجذري؟

كيف يبرز الفصام الثقافي في التلفزيونات العربية؟ كيف يدبر استوديو دوزيم ولالا لعروسة البشر الفائض عن الحاجة؟ وما هي الوظائف السرية لأخطر المجرمين؟

كيف يعيد الاشراف التربوي إنتاج السلطوية ؟ ماهي رهانات الأستاذ المغربي؟ ماهي خطة الدولة لإنهاء المدرسة العمومية؟ كيف تعيد المدرسة إنتاج الأبارتهايد الاجتماعي؟

نحن لانزعم تقديم إجابات شاملة و نهائية على هذه الأسئلة الملتبسة و المفتوحة، إن هدفنا بالأحرى هو أن نقتسم مع القارئ قلقا شديدا نحو أوضاع و تحولات دولية، عربية و مغربية نعتبرها غير مسبوقة بل و مخيفة..

الثمن

